الاتجاهات المعاصرة
في كتابة السيرة النبوية

د. عبدالرزاق بن إسماعيل هرماس*

* كلية الآداب – جامعة ابن زهر – أكادير – المغرب.

ملخص البحث:

التأليف في السيرة – خلال العصر الراهن – منه: ما هو محمود، ومنه: ما هو مذموم منحرف، وهذا القسم الثاني يرجع إلى أسباب عدة كانت دافعا لظهوره.

التأليف في السيرة النبوية ظل – خلال قرون – وفيا لغرض أساس هو خدمة هذا العلم، إلا أنه خلال القرن الرابع عشر للهجرة ظهرت نزعات منحرفة حاولت استغلال التأليف في السيرة؛ لأجل الترويج لشتى النحل والأراجيف...

والدراسة العلمية للسيرة اليوم تقوم على تجريد صحيح الآثار والأخبار أولا، ثم على حسن فهمها واستيعابها والوقوف على فقهها ودلالتها، بعد صياغتها بأسلوب علمي رصين.

كثرة التآليف المتعلقة بالسيرة النبوية – اليوم – تبرز أهمية التمييز بين الكتابات السديدة المتأصلة وبين مختلف الإنشائيات التي تسورت على هذا الموضوع، يدفعها الحقد على نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، أو الجهل بمقام النبوة، أو الرغبة في الشهرة والنجومية!!!

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم...

أما بعد،

فهذه الدراسة عن موضوع " الاتجاهات المعاصرة في كتابة السيرة النبوية "تهدف إلى تتبع التآليف المعاصرة عن حياة رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، ولم يكن قصدها جمع كل ما كتب عن الموضوع؛ لكثرته وتنوع لغات كتابته، بل غايتها الوقوف عند أهم ما ألف حديثا، مع ترتيب تلك التآليف تبعا لمناهج أصحابها، ثم تقييم هذه المؤلفات وإبراز تنوعها واختلافها...

وبحكم أن هذه التآليف منها: ما هو علمي موضوعي منضبط لأصول كتابة السيرة النبوية ومنها: ما هو منحرف موجه لخدمة نزعات مذهبية، أو لترويج معتقدات باطلة عن حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم... فإنه من الأنسب تقسيم هذه الدراسة إلى قسمين رئيسين:

الأول يخصص للحديث عن الكتابات الأصلية في السيرة، سواء سار مؤلفوها على مناهج القدامى حين صنفوا في الموضوع ... أو ساروا على منهج حديث يناسب مدارك المسلمين في العصر الراهن، ويلبي حاجياتهم المعرفية ...

القسم الثاني: يخصص لاستعراض مختلف الاتجاهات المنحرفة في كتابة السيرة بتنوعها واختلاف دوافعها وأهدافها...

هذا، ومما يجدر التنبيه إليه في هذه المقدمة أن المنهج الذي ستسير عليه الدراسة هو طريقة المؤرخين من علماء الإسلام الذين أسسوا قواعدهم العلمية في قبول الخبر وفهمه، تبعا لمنهج علماء السنة، مع الأخذ بعين الاعتبار الفرق بين المحدث والمؤرخ.

ونسأل الله العون والسداد، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يتقبل منا صالح الأعمال، والله سبحانه الموفق للصواب.

مبحث تمهيدي
منهج دراسة السيرة النبوية وفقهها

كتابة السيرة النبوية جزء أساس من علم التاريخ الإسلامي، إذ تشكل السيرة نواة هذا التاريخ ومنطلقه، وقاعدة التقويم المعتمدة فيه، ولا يخفى على أي باحث اليوم مدى استفادة التاريخ الإسلامي من علم السيرة، سواء تعلق الأمر بمجال نقل الأخبار وتوثيقها أو بمجال فهمها وتفسيرها أو بمجال ضبطها في الزمن...

فإذا رجعنا إلى التراث التاريخي العربي قبل ظهور الإسلام نجد العرب في جاهليتهم يشكلون " سديما " من المجتمعات البدوية التي تتخللها بعض التجمعات القروية المستقرة حول منابع الماء، وكانت أخبارهم تعتمد في تقويمها التاريخي على مختلف الحوادث العظام: كعام الفيل: أو حرب البسوس، أو عام وفاة كعب بن لؤي...، ولتسجيل الأخبار ونقلها اشتهر عند العرب " علم الأنساب " و " الأيام "...

" فالأنساب " تفيد في معرفة الأسر والقبائل والبطون، " وتشعب الأنساب على افتراق القبائل والطوائف أحد الأسباب الممهدة لحصول الائتلاف..."[١] وفي هذا المعنى قول الشماخ:

فالحقْ ببجلةَ ناسبْهم وكنْ معهم حتى يعيروك مجداً غير موطود[٢].

أما "الأيام " فكانت تسجيلا لأمجاد القبائل وحوادثها العظام، وحين يطلق اللفظ على هذا المعنى أي " الوقائع التاريخية " فهو من المجاز...[٣].

وكان رواة " أنساب " العرب و "أيامهم" في الجاهلية مجموعة من

---

(١) السمعاني، الأنساب ج ١ ص ١١
(٢) الزمخشري، أساس البلاغة ج ٢ ص ٤٣٥ مادة نسب
(٣) المصدر السابق ج ٢ ص ٥٦٤

الإخباريين والقصاص الذين يتداولون مختلف الوقائع اعتمادا على الرواية الشفوية، وقد ساعدهم في نقل مختلف الأخبار ما نظم فيها من شعر تناقلته الألسن.

فلما كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وجدنا القرآن يتبنى تصورا جديدا لعلم التاريخ يقوم على أربعة أسس:

أولا: ضبط الحدث التاريخي من حيث زمن وقوعه في تاريخ البشر ومن حيث الوقائع(٤).

ثانيا: تقديم الأحداث المتصلة ببعثات الرسل وتاريخ الدعوات السماوية على غيرها.

ثالثا: إغفال أيام العرب في جاهليتهم، لأن هذه الأخبار كانت تؤجج عوامل الفرقة، والقرآن يدعو إلى " الاعتصام "، هذا فضلا عن كون هذه " الأيام " كانت "تاريخ كفر" تبرأ منها العرب بعد إسلامهم(٥).

رابعا: اعتبار التاريخ علما إنسانيا، فائدته الأولى: الاعتبار بما انطوت عليه الوقائع والأحداث المختلفة من تجارب إيجابية أو سلبية عاشها البشر(٦).

وكان الحدث الأول الذي اهتم به المؤرخون المسلمون: هو عصر النبوة، أو "تاريخ صدر الإسلام " الذي اعتبر بداية لتاريخ أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وكان اهتمامهم بوقائع السيرة النبوية نابعا من اعتبارها منطلق هذا

---

(٤) وهذا يقف عليه القارئ القرآن إذا تدبر طريقه إيراد الوحي لقصص الأنبياء حيث تأتي دائما مرتبة تبعا لزمن وقوعها فلا تتقدم قصة موسى قصة عيسى ولا تسبق قصة إبراهيم أحداث قصة نوح عليهم الصلاة والسلام.

(٥) يمكن الرجوع في ذلك إلى سياق نزول الآيات ١٠١– ١٠٣ من سورة آل عمران ضمن مختلف كتب التفسير...

(٦) وهذا ما نبه إليه القرآن في أكثر من آية وختمت به سورة يوسف في قوله تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يومنون)

التاريخ وإن لم يحل ذلك دون التفاتهم إلى تاريخ الرسل السابقين عليهم السلام.

وعملا بما دعا إليه القرآن من تثبت في نقل الأخبار ومن تدقيق في فهمها وجدنا هؤلاء المؤرخين يستنبطون من الوحي نفسه جملة من الضوابط العلمية التي حكموها في أخبار عصر المبعث، وأخبار ما تلا ذلك من عصور الإسلام. وتقوم هذه الضوابط على جملة من القواعد التي يخضع لها قبول الرواية أو الخبر التاريخي، كما يخضع لها فهمهما...

فبالنسبة لقبول الأخبار أو ردها فإن علم الرواية – كما هو مؤصل في الإسلام – لا يعتمد إلا الثابت الحقيقي، وقد قص علينا القرآن طائفة من أخبار الرسل وأقوامهم التي لم تلبث أن شحنت في بعض كتب التفسير بمختلف الآثار الواهية، لكن قيض الله لعلم التفسير طائفة من أئمة الرواية نقدوا هذه الآثار، وكشفوا عوارها وزيفها...

والأئمة الحفاظ من علماء الحديث الذين اهتموا بالسيرة النبوية سلكوا لأجل تدقيق الروايات المنهج المعروف في مجال دراسة السنة المشرفة، وكان هذا صنيع الإمام البخاري فيما أخرجه من أحاديث السيرة ضمن جامعه الصحيح، كما كان صنيع غيره من أئمة السنة...

ولاشك أن تطبيق هذا المنهج العلمي على أخبار عصر النبوة ينتهي بنا إلى تمييز صحيحها من بهرجها، لتبتديء – بعد ذلك – المرحلة الثانية التي هي فهم هذه المرويات واستنباط فقهها ودلالاتها...

وأول ما يقتضيه العلم والحقيقة العلمية أن تبني دراسة وفقه الخبر الصحيح على أساس تجرد الدارس من كل تصور سابق يمكن أن يتأثر يه في استنباطه لمختلف دلالات وعبر أحداث السيرة النبوية، كما تنبني هذه الدراسة على فهم الأخبار تبعا لما يقتضيه اللسان العربي زمن النبوة، وعدم العدول بها إلى معاني طارئة بعد هذا العصر.

والكتابة في فقه السيرة النبوية واستنباط معانيها وبحث دلالة أخبارها

على مختلف المعاني ليس عملا آليا ميسورا، بل هو دراسة علمية، مدارها على أسس الاستقراء في الفكر الإسلامي بأصولها اللغوية والشرعية...

نخلص مما سبق إلى أن منهج دراسة السيرة أو الكتابة في موضوعها يتطلب:

أولا: التثبت عند نقل الأخبار، وهذا يتحقق عن طريق الاستفادة العلمية من قواعد علم الرواية.

ثانيا: إجادة الوقوف على هذه الأخبار؛ لاستنباط دلالاتها عن طريق الاستقراء والتدبر...

والمنهج العلمي لدراسة السيرة يقوم على هذين الأصلين، والكتابة العلمية التاريخية المعاصرة التي يكون غرضها الوقوف على الوقائع واستنباط مختلف دلالاتها تستوجب:

١ – الاطلاع على الكثير من الأخبار في مختلف مظانها، واختيار الثابت منها، ويفيد الدارس في هذا الجانب حرصه على التتبع، وتمرسه، وطول اشتغاله بالموضوع وملازمته.

٢ – القدرة على فهم النصوص واستيعابها، ثم ترتيبها وتبويبها، رغم اختلاف المصادر والموارد التي أخذت منها.

٣ – القدرة على صياغة مختلف الأحكام والعبر صياغة علمية معاصرة يكون الهدف منها إبراز مكانة السيرة النبوية ودورها في فهم الإسلام، بخاصة أن السيرة تقدم لنا النموذج الأمثل لما ينبغي أن يكون عليه التصور والسلوك في حياة المسلم.

٤ – ومما تستوجبه الكتابة العلمية في السيرة الالتزام: بالأسلوب الأدبي الرصين، إذ أن السيرة النبوية ليست قصصا عادياً أو أخباراً وحكايات لاستهلاك الوقت، بل هي وصف حي لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أمرنا بالتأسي به، والاقتداء بسنته الجامعة.

وإذا رجعنا إلى تآليف القدامى في السيرة نجد بعضها قد التزم بالقواعد

العلمية في نقل النصوص وفهمها، وبعضها الآخر تساهل أصحابه في رواية الأخبار، فجمعوا الصحيح وما دونه... من ثم وجدنا بعض المؤرخين المتأخرين كالحافظين الذهبي ت ٧٤٨هـ، وابن كثير ت ٧٧٤ هـ.. يسعون جاهدين لتطبيق منهج المحدثين على أخبار عصر البعثة وتمييز صحيح هذه الأخبار وحسنها وما قارب الحسن، ونفي الواهي والمنكر من الروايات...[٧].

وتجب الإشارة في هذا المبحث إلى أن علم السيرة النبوية يتجاذبه أمران:

أولهما: الجانب الحديثي، حيث وجدنا الكثير من أخبارها منقولة ضمن أمهات كتب السنة، في أبواب المغازي والفضائل وبدء الوحي..كما كان أوائل مدوني السيرة من أعلام المحدثين من طبقة كبار التابعين.

وثانيهما الجانب التاريخي الذي يهتم أصحابه بالأخبار والوقائع وتفصيل الأحداث، وقد غلب هذا الجانب على ابن إسحاق (ت ١٥١هـ) والفزاري (ت١٨٦هـ) وغيرهما، وإذا كان المحدثون لم يستوعبوا كل جزئيات السيرة؛ لاقتصارهم غالبا على ما يتعلق بالأحكام فإن المؤرخين المصنفين في السيرة تعقبوا مختلف الأخبار فجمعوها ورتبوها وهذبوها لمن خلف من بعدهم...

ونحن اليوم إذا نظرنا إلى مختلف الكتابات المعاصرة عن السيرة النبوية نجد من بينها تآليف علمية جادة استفادت من الجهود السابقة...، وتآليف كانت عبارة عن تلخيص لمؤلفات السابقين بأسلوب مبسط... غير أن هناك من المعاصرين من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وجعل الكتابة في السيرة مطية لترويج خلفياته المذهبية... ورغم أن القرون الخوالي من تاريخ الإسلام لم تشهد محاولات استغلال السيرة لأجل نصرة المعتقدات الباطلة، فقد وجد في عصرنا الراهن من أصحاب النحل والمذهبيات من تجرأ على سيرة المصطفى

---

(٧) قال ابن كثير في مقدمة كتابه البداية والنهاية ج ١ ص ٦:" وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما صح نقله أو حسن، وما كان فيه ضعف نبينه..."

صلى الله عليه وسلم، وأنتج تجرؤه ألوانا من الاتجاهات المنحرفة في الكتابة عن السيرة النبوية.

اعتباراً لذلك فإن الكتابة عن هذا الموضوع تستوجب تقسيم الكلام إلى فصلين رئيسين: الأول: عن الاتجاهات الأصلية في كتابة السيرة والثاني: عن الاتجاه المنحرفة في التأليف عنها...

الفصل الأول
الكتابات الأصيلة في السيرة النبوية

المقصود بالكتابات الأصيلة في السيرة تلك التآليف المعاصرة التي تعتمد في مادتها على المصادر الأصلية[٨] وعلى مصنفات القدامى لكنها تستفيد من المناهج والأساليب المعاصرة في كتابة السيرة والاستنباط منها، فهذه الكتابات الأصيلة جذورها في القديم، لكن أسلوبها معاصر، ولا توجه لنصرة مذهب أو بدعة في الفكر والاعتقاد، بل غايتها خدمة هذا العلم الإسلامي... وهذه الكتابات الأصيلة تنقسم باعتبار مناهج تأليفها إلى قسمين:

فهناك تآليف سارت على مناهج المتقدمين العلمية.

وهناك تآليف انطلقت في كتابة السيرة من تصورات منهجية حديثة.

المبحث الأول
التأليف العلمي على مناهج المتقدمين

أهم ما ميز التآليف القديمة في السيرة: أنها اتجهت إلى جمع الأخبار وتوثيقها، كما اهتمت بالترتيب التاريخي للأحداث، هذا إضافة إلى حفاظها على متون مرويات السيرة... وقد وجد خلال العصر الراهن من كتاب السيرة من درج على أساليب القدامى ممن كتبوا في الموضوع، سواء كانوا محدثين أو فقهاء أو مؤرخين... فأخرجوا للناس كتبا علمية عن حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم لا نكاد نجد بينها وبين مؤلفات القدامى فارقا في أسلوب التأليف، ولو تصفحنا هذه الكتب العلمية لوجدناها لا تكاد تخرج عن أساليب أربعة...

---

(٨) يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى: د. فاروق حمادة، " مصادر السيرة النبوية وتقويمها " نشر دار الثقافة الطبعة الثانية الدار البيضاء.

فبعض المعاصرين كانوا متأثرين بأسلوب المحدثين، وبعضهم تأثر بأسلوب الفقهاء، ومنهم من تأثر بأسلوب المؤرخين، وهكذا...

المطلب الأول

اتجاه المحدثين في التأليف عن السيرة

تقوم طريقة المحدثين على غربلة الروايات ونقدها سندا ومتنا...، ويقدم المحدثون الصحيح والحسن، فإن عدم ذلك اعتمدوا ما دونه من الأخبار إذا خلا الباب من حديث مقبول، وفي عصرنا الراهن وجدنا عددا من كتاب السيرة يسعون لاقتفاء أثر منهج المحدثين في تمحيص مرويات وأخبار السيرة التي يعتمدون عليها.

فالشيخ محمد الخضري ت ١٣٤٥ هـ حين أراد تأليف كتابه " نور اليقين في سيرة سيد المرسلين " حرص على أن يكون الكتاب مختصرا خاليا من الحشو، معتمدا على صحيح الأخبار، حيث ذكر في مقدمته: "... وقد كان موردي في تأليفه القرآن الشريف، وصحيح السنة، مما رواه الإمامان البخاري ومسلم، ولم أخرج عنهما إلا فيما لابد من تفهيم العبارات، فكان يساعدني الشفا للقاضي عياض، والسيرة الحلبية، والمواهب اللدنية للقسطلاني، وإحياء علوم الدين للغزالي... "(٩).

كما نجد الشيخ محمد الصادق عرجون ت ١٤٠٠ هـ حين ألف كتابه "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهج ورسالة – بحث وتحقيق " في أربعة مجلدات يقول في مقدمته: " وعمود البحث في منهجنا هو ما أصلنا في كتبنا ومؤلفاتنا – لاسيما التاريخية منها – أننا نقرأ ونقرأ، حتى نظن أننا

---

(٩) الشيخ الخضري، نور اليقين ص٤. لكن المصادر الصحيحة للسيرة ليست محصورة في القرآن وجامعي الإمامين البخاري ومسلم... كما أن " السيرة الحلبية " و"الإحياء " وقسما من " الشفا " لا يخلو ذلك من الآثار الواهية.

استوعبنا أو قاربنا، ثم نفحص ونمحص ونوازن وننقد، ونعتمد ما ثبتت لدينا صحته سندا، ويدخل في وصيد القبول متنا وأصلا، ولم يعارضه من مدركات العقل والعلم ما يعلو عليه مع إيماننا أن للعقل حدا يقف عنده ولقضايا العلم موضوعات تنتهي عندها وهما محجوبان عن عالم الغيب، مقصران دون إدراك كثير من حقائق عالم الشهادة "[١٠].

لكن رغم تصريح الكثير من المعاصرين المهتمين بالسيرة باعتمادهم لصحيح الأخبار وتدقيق الروايات فإنه كثيرا ما غلبتهم كثرة الآثار، فتخلوا عن التمييز بينها؛ تبعا لقواعد مصطلح الحديث. وإنه مما لاشك فيه: أن الاستفادة من منهج علماء السنة لأجل إعادة كتابة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم يتطلب تفرغاً وصبراً يستمران لسنوات حتى يقف الباحث في الموضوع على مختلف الأخبار في مظانها فيميز ما اتفق أهل العلم على صحته ويعرض غيره على قواعد المحدثين...

ومن التآليف العلمية المعاصرة التي سارت على منهج المحدثين وفرضت نفسها بين مختلف الكتابات المتصلة بعصر المبعث: "السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية" للدكتور أكرم ضياء العمري[١١].

فقد عمد المؤلف – منذ حوالي ثلاثة عقود – إلى نشر بعض الدراسات عن جوانب معينة من أحداث السيرة، مطبقا عليها منهج النقد الحديثي، ثم عمد فيما بعد إلى كتابة دراسة شاملة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، سار فيها على هذا المنهج، كما وصفه في مقدمة الكتاب بقوله:

---

(١٠) محمد الصادق عرجون، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهج ورسالة... المقدمة دار القلم دمشق.

(١١) د. أكرم ضياء العمري من مواليد الموصل عام ١٩٤٢، عمل في كلية الآداب جامعة بغداد، ثم في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ثم في كلية الشريعة في جامعة قطر، وظل حوالي ثلاثة عقود يدرس ويبحث في السيرة النبوية التي نشر في موضوعها الكثير من الأبحاث...

" إن هذه الدراسة التي أقدم لها لا تمثل طموحي، ولكنها محاولة للإفادة من منهج المحدثين في نقد الرواية التاريخية، ويظهر فيها التركيز على نقد الأسانيد والرواة، إلى جانب نقد المتن، وخاصة في عملية الانتقاء من مجموع الروايات الضخمة التي دونها القدامى في السيرة، إذ أن الاعتماد على الروايات التي صححها النقاد القدامى أحيانا، أو الإفادة من منهجهم في تصحيح أو تضعيف ما لم يحكموا عليه من الروايات هو أهم ما تهدف إليه هذه الدراسة، لينال البحث ثقة القارىء وليعطي أصدق صورة عن السيرة. وقد تبرز معان خلقية أو دينية مؤثرة في الروايات التي أهملتها، لكنني لم أكثرت لذلك مادامت ضعيفة الثبوت، وقد ظهر جليا أن الاعتماد على صحيح الروايات وحسنها يكفل توضيح الأبعاد التاريخية للسيرة النبوية دون حاجة إلى الضعيف من الروايات.

ويلاحظ القارىء أن الروايات الضعيفة من الناحية الحديثية لم تستبعد نهائياً، بل تمت الإفادة منها في الموضوعات التي لا تتعلق بالعقيدة أو الشريعة حيثما لم نجد روايات صحيحة وفق معايير المحدثين، حيث يمكن التعامل معها وفق معايير منهج النقد التاريخي "[١٢].

وكتاب " السيرة النبوية الصحيحة " وإن كان في أصله كتابا مدرسيا فإن جهود المؤلف في مراجعة مباحثه وتنقيحها – خلال سنوات – قبل إعدادها للنشر كاملة جعل للكتاب مكانة علمية متميزة بين طلبة العلم بعامة والباحثين في السيرة بخاصة خلال العصر الراهن[١٣].

---

(١٢) د. العمري، السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ص ١٩، ومما ميز هذا الكتاب حرص مؤلفه على تعقب الكثير من الروايات الواهية المتداولة بين الناس، فهو مثلا عند حديثه عن زواج أبويه صلى الله عليه وسلم قال:" وقد نسج بعض الكذابين حكاية حول عبد الله أرادوا بها المبالغة بإضفاء طابع أسطوري على المولد النبوي... وهذه الرواية منكرة سندا ومتنا..." وفي حديث المؤلف عن وفاة عبد الله، قال:"ولم ترد رواية صحيحة في حادثة وفاته، إذ كل ما ورد عنها ضعيف ضعفا شديدا أو مرسل ضعيف.." السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ص ٩٤–٩٥.

(١٣) د. العمري، المرجع ج ١ ص. ٢٣

المطلب الثاني

اتجاه الأثريين في التأليف عن السيرة

يستفيد هذا الاتجاه من الأحاديث الصحيحة والحسنة، كما يهتم بما دونها من الروايات، وكان مقصد الأثريين من كتاب السيرة المعاصرين استيعاب مختلف الآثار في موضوع السيرة، والوقوف على سائر مشاهدها، والتوسع في عرض أحداثها(١٤)

ومن التآليف التي سارت على هذا النهج:

" خاتم النبيئين " لمحمد أبي زهرة ت ١٩٧٤م.

" السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة " لمحمد أبي شهبة.

" السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية " للدكتور مهدي رزق الله أحمد.

فالشيخ أبو زهرة اتجه إلى الكتابة في السيرة بعد أن ألف عدة كتب في سير بعض أئمة الفقه، فكتب في السيرة ثلاثة أجزاء جاءت مستوعبة لأكثر الأخبار المتصلة بالموضوع(١٥).

أما طريقة تعامل الشيخ مع الروايات فلم تكن تستند إلى منهج المحدثين بخاصة حين يتعلق الأمر بالآثار الضعيفة والواهية...

ففي كلامه عن نسبه صلى الله عليه وسلم عرض لخبر عن كلاب بن مرة

---

(١٤) " الأثر " في اصطلاح المحدثين يقال للموقوف والمقطوع كما ذهب إلى ذلك ابن حجر في شرح النخبة ص ١١٢، وفي تدريب الراوي "... الموقوف هو المروي عن الصحابة قولا لهم أو فعلا أو نحوه متصلا كان أو منقطعا ويستعمل في غيرهم مقيدا، فيقال وقفه فلان على الزهري ونحوه، وعند فقهاء خراسان تسمية الموقوف بالأثر والمرفوع بالخبر، وعند المحدثين كل هذا يسمى أثرا ". وأنظر تدريب الراوي ج ١ ص ١٨٤– ١٨٥

(١٥) محمد أبو زهرة، خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ج ١ ص ٦

–جده السادس – "... ولقد قالوا في الأخبار: إن كلابا كان يؤمن بأنه سيكون نبي من قريش..وإن صح ذلك الخبر فمؤداه أن كلابا هذا كان من أشد المتمسكين بإبراهيم "[١٦] وليست هذه طريقة المحدثين في نقل الأخبار وتوثيقها والاعتماد عليها في معرفة السيرة...، وفي كلام أبي زهرة عن موت آمنة بنت وهب تكلم عن أبويه صلى الله عليه وسلم وانهما من " أهل الفترة " فلما واجهته آثار تخالف ما ذهب إليه لم يعرضها على ميزان الجرح والتعديل (في أسانيدها) وإنما تعامل معها بمنهج خاص في القبول والرد مقررا:"... وما انتهينا إلى هذا بحكم محبتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم... ولكن بحكم العقل والمنطق والقانون الخلقي المستقيم والأدلة الشرعية القويمة ومقاصد الشريعة وغاياتها "[١٧].. ولا نعلم عند علماء الرواية ونقادها منهجاً يقوم على هذا الكلام الذي قرره الشيخ رحمه الله.

ومن المؤلفات المعاصرة في السيرة التي سارت في هذا الاتجاه كتاب " السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية " للدكتور مهدي رزق الله[١٨].

يذكر المؤلف في مقدمة كتابه "... أن هدف البحث ليس استقصاء جميع مرويات السيرة النبوية، بل الهدف رسم هيكل للسيرة يستوعب معظم الصحيح من مرويات السيرة، وإذا لم أجد الصحيح ذكرت مرويات ضعيفة فيما لا يتعلق بالعقيدة والأحكام، ونبهت على ذلك... لقد حاولت التقليل من حجم الحواشي حتى لا يتضخم الكتاب، وعلى الرغم من هذا كادت الحواشي أن تصل إلى نحو

---

(١٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦

(١٧) نفسه ج ١ ص ١٧٠

(١٨) كان تأليف هذا الكتاب لغاية تعليمية، فقد كان مؤلفه د. مهدي رزق الله أحمد أستاذا لمادة السيرة النبوية بقسم الثقافة الإسلامية – كلية التربية جامعة الملك سعود بالرياض، وقد قدم المؤلف كتابه بتواضع قائلا:"..فقد كنت أتوق دائما إلى العثور على كتاب تتحقق فيه مواصفات معينة... عندما لم أجد كتابا تحققت فيه هذه المواصفات أقدمت على القيام بهذه المحاولة... وإذا كان هناك قصور في بعض الجوانب فهو مني وذلك لأن بضاعتي في الحديث مزجاة..."
وانظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١١.

ثلث الكتاب وذلك لأن الضرورة العلمية اقتضت ذلك، لا سيَّما أن كثيرا من الأحاديث الضعيفة تتقوى بالشواهد والمتابعات التي لابد من ذكر بعضها، إضافة إلى هذا فإني رأيت ضرورة وأهمية إثبات كثير من مرويات أهل السير والمغازي ليتبين للقارىء أن كثيرا من مرويات أهل المغازي والسير لها أصل في الصحيح، وأن روايات أهل الحديث الصحيحة تؤكدها وتجعل لها قيمة علمية معتبرة "[١٩].

لكن المتتبع لكتابات د. مهدي رزق الله كثيراً ما يلاحظ عليه تتبعه لأخبار واهية لا نجد لها أصلاً أو شاهداً في الصحيح فأحرى أن تؤكدها روايات أهل الحديث الصحيحة... من هذه الأخبار: كلامه مثلاً عن ذرية إسماعيل عليه السلام وعن عدد مرات تجديد بناء الكعبة المشرفة[٢٠] بل وجدنا الدكتور مهدي رزق الله يفرد دراسة كاملة لعمارة الكعبة عبر التاريخ جمع فيها مختلف الأخبار التي تناقلها الرواة رغم ما في بعضها من نكارة[٢١].

وخلاصة لما سبق فقد حرص أصحاب هذا الاتجاه من كتاب السيرة

---

(١٩) المرجع السابق ص ١٢. وتطبيقا لهذا المنهج وجدنا المؤلف يسوق بعض الأخبار الواهية في السيرة على اعتبار أنها مشهورة، من ذلك ما ذكره عن (إرهاصات النبوة عند ميلاده صلى الله عليه وسلم):"... وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالة على نبوته...، وما لم يثبت بطرق صحيحة ولكنه اشتهر مثل قولهم: إنه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى وخمدت النار التي كان يعبدها المجوس وغاصت بحيرة ساوة وانهدمت المعابد التي كانت حولها " ص ١١٢– ١١٣. خلافا لذلك وجدنا د. أكرم ضياء العمري حين تعرض لنفس الأخبار حكم بوضعها من قبل الكذابين، فقال في السيرة النبوية الصحيحة ج ١ ص ١٠٠ "... وكذلك وردت روايات موضوعة حول هواتف الجان في ليلة مولده وتبشريها به وانتكاس بعض الأصنام في المعابد الوثنية بمكة وحول ارتجاج إيوان كسرى وسقوط شرفاته وخمود نار المجوس وغيض بحيرة ساوة..."

(٢٠) وذلك قبل خلق آدم عليه السلام ثم عمارة آدم ثم عمارة أولاده... وانظر السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٥١.

(٢١) د. مهدي رزق الله أحمد، عمارة الكعبة عبر التاريخ، ضمن فصلية الدارة الصادرة بالرياض، العدد ١، السنة ٢٤ ص ٦٣– ١٤٠.

المعاصرين على أن تستوعب تآليفهم مجمل الأخبار التي تناقلها الناس عن عصر المبعث، سواء أكانت مسندة أم بدون سند، وسواء أكانت متصلة أم منقطعة، ولعل الحرص على هذا الاستيعاب هو الذي أوقع هؤلاء في الكثير من الأخبار الواهية التي يصادفها القارىء في ثنايا كتبهم.

المطلب الثالث

الاتجاه الفقهي في كتابة السيرة

يهتم هذا الاتجاه – في العصر الراهن – بأحاديث السيرة التي تتضمن أحكاما فقهية فيجتهد المؤلف في جمع هذه الأخبار وترتيبها، ثم استنباط ما فيها من فقه وأحكام وعبر.

وقد ظهر هذا الاتجاه مع الإمام البخاري ت ٢٥٦ هـ الذي كان يترجم لأحاديث السيرة التي أخرجها في جامعه الصحيح بما يفيد الأحكام المستفادة منها...، فلما جاء ابن قيم الجوزية ت ٧٥١ هـ أخرج للناس كتابا كاملا جرده لفقه السيرة هو " زاد المعاد في هدي خير العباد ".

وفي العصر الراهن اهتم الكثيرون بفقه السيرة النبوية لكن أهم من أفرد الموضوع بالتأليف:

د. مصطفى السباعي ت ١٣٨٧ هـ في " السيرة النبوية: دروس وعبر ".

محمد الغزالي في " فقه السيرة ".

د. محمد سعيد رمضان البوطي في " فقه السيرة ".

كان مصطفى السباعي رحمه الله يدرس مادة السيرة النبوية لطلبة كلية الشريعة بدمشق قبل أكثر من أربعين سنة، ثم ما لبث في آخر حياته أن جمع تلك المحاضرات التي ألقاها على طلبة السنة الأولى وطبعها في كتيب وتداولها الناس منذ ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م.

وقد ابتدأ الدكتور السباعي كتابه بمقدمتين عن الفائدة من دراسة السيرة

وعن مصادرها الصحيحة ثم انتقل إلى موضوعه الذي هو فقه السيرة في عشرة فصول مستهلا كل فصل بذكر الوقائع التاريخية التي تمدنا بها الأخبار الثابتة ثم ينتقل بعد ذلك إلى استخراج مختلف الدروس والعبر من تلك الوقائع، هذا، وقد أثر المنهج الذي سلكه في عدد ممن جاؤوا بعده من كتاب السيرة[٢٢].

بعد كتاب د. السباعي ظهر مؤلف آخر هو كتاب " فقه السيرة " لمحمد الغزالي، هذا المؤلف وإن نشره الشيخ الغزالي بهذا العنوان إلا أن مضمونه أقرب إلى المؤلفات التي تكتفي بسرد الأحداث التاريخية منه إلى التأليف في فقه السيرة كما هو معروف اليوم، ولعل هذا ما نفهمه من كلام المؤلف في مقدمته: " وقد بذلت وسعي في إعطاء القاريء صورة صادقة عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واجتهدت في إبراز الحكم والتفاسير لما يقع من حوادث، ثم تركت للحقائق المجلوة أن تدع آثارها في النفوس دون افتعال أو احتيال "[٢٣]. غير أنه مما انتقد في هذا الكتاب طريقة تعامل مؤلفه مع صحيح الأحاديث التي يردها بمجرد الرأي، وبالعكس قد يحتج بالواهي من الآثار إن هي استقامت مع رأيه...[٢٤]، وقد لخص موقفه في مدخل وضعه للكتاب قائلا:"آثرت هذا المنهج في كتابة السيرة، فقبلت الأثر الذي يستقيم متنه مع ما صح من قواعد وأحكام، وإن وهى سنده...

وأعرضت عن أحاديث أخرى توصف بالصحة، لأنها – في فهمي لدين الله وسياسة الدعوة – لم تنسجم مع السياق العام "...[٢٥].

على أن أكثر كتب فقه السيرة رواجا خلال العقود الثلاثة الأخيرة هو

---

(٢٢) أنظر منهجه في كتابة السيرة ضمن: السيرة النبوية دروس وعبر. ص ٤– ٥

(٢٣) الغزالي، فقه السيرة ص ٤

(٢٤) انظر في الموضوع دراسة نشرها د. محمود الطحان عقب إصدار الغزالي لكتاب "السنة النبوية بين أهل الحديث وأهل الفقه" وذلك في مجلة "المجتمع" الكويتية العددين ٩٢٠– ٩٢١ (١٠ و ١٧ ذي القعدة ١٤٠٩).

(٢٥) الغزالي، فقه السيرة ص ١٣.

كتاب د. محمد سعيد رمضان البوطي الذي كان في الأصل " تأليفا مدرسيا " وضعه مؤلفه لطلبة كلية الشريعة بجامعة دمشق[٢٦].

وأهمية هذا الكتاب وقيمته العلمية وجدته منذ صدوره تظهر من خلال:

- حرصه على توثيق النصوص وربطها بتسلسلها التاريخي[٢٧].
- التوسع في فقه السيرة وفصله عن النصوص التاريخية والأخبار.
- الاهتمام بتصحيح الأغلاط التي وقع فيها كتاب السيرة المعاصرون من المستغربين والمستشرقين.
- اتباع منهج علمي بعيد عن الطريقة الأدبية المجردة.

وقد صدرت الطبعة الثانية من هذا الكتاب عام ١٣٨٨ هـ.

المطلب الرابع
الاتجاه التاريخي في كتابة السيرة

وهو متأثر بمدرسة " الحوليات " في كتابة التاريخ الإسلامي، وقد عرف هذا الاتجاه منذ بداية حركة تدوين السيرة والتاريخ، وتبلور مع أبي عمرو خليفة بن خياط العصفري ت ٢٤٠هـ في تاريخه، وبلغ أوجه مع أبي جعفر بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ في " تاريخ الأمم والملوك ".

وأكثر المتأثرين بهذا الاتجاه في كتابة السيرة بعض المؤرخين المسلمين المعاصرين، مثل الأستاذ عزة دروزة، ود. حسين مؤنس، ود.عماد الدين خليل.

فأما الأستاذ محمد عزة دروزة ت ١٤٠٤ هـ صاحب " تاريخ الجنس العربي " فقد ألف العديد من الكتب عن تاريخ الإسلام، ومن بينها: كتابان عن

---

(٢٦) د. محمد سعيد رمضان البوطي، فقه السيرة ص ١١

(٢٧) اختار المؤلف وقائع بعينها لأنها كانت حاسمة في أحداث السيرة ولم يهتم بتتبع جميع الأخبار كما يفعل الأثريون.

السيرة النبوية، هما: "عصر النبي وبيئته قبل البعثة " وكتاب " سيرة الرسول " صلى الله عليه وسلم في جزئين.

أما د.حسين مؤنس ت ١٤١٤ هـ: فقد ألف كتاب " دراسات في السيرة النبوية "اهتم فيه " بالتاريخ الحضاري " لعصر المبعث، لكن د. مؤنس رغم تخصصه في تاريخ الأندلس بخاصة وتاريخ الإسلام بعامة ورغم عاطفته الإسلامية وقع في كبوات أثناء كتابة " دراسات في السيرة النبوية "...

فهو أولا أنكر أحاديث صحيحة من أخبار السيرة، من ذلك رده لحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير(٢٨).

كما أنه ثانيا استطرد في تتبع التاريخ الحضاري؛ ليصل إلى استنتاجات لا أصل لها، ولا دليل يعززها، مثل حديثه عن عبد المطلب ومكانته الدينية في مجتمع مكة الوثني، وذلك في سياق كلامه عن الرجال الذين ساهموا في تكوين شخصية محمد صلى الله عليه وسلم(٢٩)...

أما د.عماد الدين خليل فقد ألف " دراسة في السيرة " لكنه حرص على أن لا يخضع في هذا الكتاب لتوالي الأحداث في التاريخ، بل حرص على عرض أحداث السيرة بطريقة موضوعية مترابطة، فلا نجد الوقائع في كتابه متناثرة تبعا لتسلسلها في الزمن، بل كان يعمد إلى الحدث الواحد ويجمع أجزاءه ووقائعه ثم يقدمه في صورة متكاملة، تبعا للمرحلة التي حدث فيها.

وهناك ميزة ثانية لكتاب د. خليل هو اعتماده على الواقعة التاريخية دون تكلف في تأويلها؛ ويقول بخصوص هذا الجانب:"... ومن ثم فإن لنا – على مستوى الحركة التاريخية– أن نتصور مدى المساحة التي يشغلها الغيب في

---

(٢٨) انظر: د. حسين مؤنس، دراسات في السيرة النبوية ص ٢٢٩ والحديث المشار إليه أخرجه البخاري في جامعه ضمن كتاب الأطعمة باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يأكلون، حديث ٥٤١٤؛ وهناك أحاديث غير هذا ردها المؤلف مع أنها في الصحيح.

(٢٩) حسين مؤنس، المرجع السابق ص ٣٣...

صياغة الأحداث وتوجيهها... ابتداء من خلق الأشياء والأحداث بقوة الكلمة (كن)... وانتهاء بمصائرنا اليومية... وبين هذا وذاك كل أحداث التاريخ ووقائعه... والتي لم يكن الإنسان والطبيعة فيها سوى استمرار حر أو مقدر لما يدور في ساحة الغيب وفق مقاييس الحق والعدل الأبديين "[٣٠].

المبحث الثاني
مناهج حديثة في كتابة السيرة النبوية

ظهر تأثير الواقع الفكري والثقافي في طائفة من الكتابات المعاصرة في السيرة من خلال توجه مؤلفيها لاختيار مناهج حديثة، غايتها تبسيط علم السيرة، وتذليل عبرها؛ حتى يكون ذلك في متناول الناس من عامة المسلمين اليوم، وإذا كانت أكثر التآليف السابقة قد ظهرت في رحاب كليات الشريعة والتربية والآداب...، فإن التآليف التي يعرض لها هذا المبحث موجهة بالخصوص إما لمحدودي الثقافة الشرعية، وإما لتأطير حركات البعث الإسلامي... ويدخل في هذا العديد من الاتجاهات التي ظهرت خلال العصر الراهن وأهمها:

- الاتجاه التربوي
- الاتجاه الحركي.
- الاتجاه الموضوعي
- الاتجاه الأدبي

المطلب الأول
الاتجاه التربوي في كتابة السيرة

يرمي هذا الاتجاه إلى إبراز جوانب التربية العملية في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وحياته، ومن ثم فهو يركز على ما يتصل بالقدوة

---

(٣٠) أنظر: د. عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١٣٢– ١٣٣. وكتاب " دراسة في السيرة " ألفه د. خليل في الأصل لطلبة كلية الآداب – جامعة الموصل، وقد صدرت له طبعات كثيرة.

والأسوة الحسنة في أخلاقه وسلوكه عليه الصلاة والسلام، ومن التآليف التي سارت في هذا الاتجاه:

- "السيرة النبوية " لأبي الحسن الندوي (ت ١٤٢٠هـ)
- " سيرة النبي " لأبي الأعلى المودودي ت ١٣٩٩ هـ (جزءان).
- " الرسول صلى الله عليه وسلم " لسعيد حوى ت ١٤٠٩ هـ.

أما كتاب أبي الحسن الندوي فقد ألف بين عامي ١٣٩٥-١٣٩٦ واعتمد فيه كاتبه على طائفة من مصادر السيرة، بالإضافة إلى عدد من الكتب المعاصرة في اللغات الشرقية والغربية، ووصف المؤلف صنيعه في السيرة ضمن مقدمة الطبعة الأولى – مبرزا اتجاهه :" حاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلمي والجانب التربوي البلاغي، لا يطغى أحدهما على الآخر، وأن يشتمل على أكبر قدر من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير الآسرة للقلوب والنفوس..."[٣١].

أما كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي الأعلى المودودي فهو مؤلف باللغة الأردية، ورغم أن الكثير من كتب المودودي عربت إلا أننا لا نعلم أن هذا المؤلف نقل إلى العربية، وقد ألفه أبو الأعلى – مثل سائر كتبه – ليكون كتابا تعليميا لعامة المسلمين بباكستان، وظهر هذا المؤلف في السنوات الأخيرة قبيل وفاة الكاتب[٣٢].

أما كتاب " الرسول صلى الله عليه وسلم " لسعيد حوى ت ١٤٠٩ هـ فهو مؤلف في جزئين ضمن سلسلة سماها الكاتب " دراسات منهجية هادفة " وضعها تبعا للبرنامج التربوي لجماعة الأخوان المسلمين بسوريا، والجزء الأول من الكتاب خصصه المؤلف للجوانب التربوية المستفادة من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، حيث خصص مبحثا لصفاته صلى الله عليه وسلم والتزامه الكامل بدعوته ووسائله في تبليغها، ثم عرض لجوانب التأسي في السيرة، حيث كان عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى للأب والزوج والداعية والقائد... أما الجزء الثاني من الكتاب: فكان مخصصا لما يجب أن يكون عليه اعتقاد المسلم بالنسبة للنبوة... وكان الأولى

---

(٣١) الندوي، السيرة النبوية ص ١٨ الطبعة الثانية عشرة ١٤٢٠هـ دمشق

(٣٢) أنظر " د. سمير إبراهيم، أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته ص ٢٣١.

أن يقدم هذا الجزء أولا لكن غرض الكاتب من التأليف في الموضوع – وهو إبراز جوانب التربية العملية في السيرة – دفعه إلى اتباع هذا المنهج...

ونحن إذا نظرنا إلى هذه التآليف الثلاثة في السيرة وجدناها تتجه إلى إبراز موضوع السيرة باعتباره تجسيدا حيا لهدي الإسلام في الحياة كلها، لذلك لم يكن غريبا أن يشغل التأليف في هذا الاتجاه عددا من أعلام الدعاة المعاصرين، وبحكم اعتماد مختلف حركات البعث الإسلامي المعاصرة على عامل التربية – أي التنشئة على هدي الإسلام – فقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم النموذج الأمثل للمسلم؛ ولذلك اتجهت إليها جهود هؤلاء؛ لأنها تشخص للأجيال المعاصرة التطبيق العملي للإسلام في واقع الحياة.

المطلب الثاني
الاتجاه الحركي في كتابة السيرة

يهتم هذا الاتجاه بجانب واحد من السيرة النبوية، وهو طريقته صلى الله عليه وسلم في دعوة الناس إلى دين الإسلام، فيتعقب أصحاب هذا الاتجاه مختلف أخبار عصر المبعث، ويقفون عند كل حدث له صلة بالموضوع، فالدعوة الإسلامية على عهد النبوة مرت بمراحل، كل مرحلة لها وسائل وحاجات منذ بدء الوحي حتى دخول الناس في دين الله أفواجا.

وإذا كان هذا الجانب من السيرة قد اهتم به سائر المؤلفين عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم فإن هناك من اتجه إلى إفراده بالكتابة وأكثر ما كتب فيه مجموعة من المقالات والدراسات في شتى الصحف والمجلات الإسلامية كما كتب سيد قطب ت ١٣٨٧ هـ عدة فصول عن هذا الموضوع ضمنها في تفسيره " في ظلال القرآن "[٣٣].

---

(٣٣) يرجع في هذا الجانب إلى تفسير الآيات التي عرضت لمغازيه صلى الله عليه وسلم ضمن " في ظلال القرآن " بخاصة في سورتي آل عمران والتوبة

وأشهر التآليف المفردة لموضوع هذا الاتجاه كتاب: منير محمد الغضبان الموسوم ب " التفسير الحركي للسيرة النبوية " المطبوع في ثلاثة أجزاء ضمن مجلد واحد، ويعرف الكاتب هذا المنهج في كتابة السيرة بأنه يعني " الخطوات المنهجية التي تحرك بها النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعثته حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى... وهو من جهة ثانية تبصرة للحركة الإسلامية في خطها السياسي؛ للوصول إلى أهدافها في إقامة حكم الله في الأرض... "[٣٤].

وأهم ما ميز هذا الاتجاه:

١ – تقسيم تاريخ الدعوة الإسلامية على عهد النبوة إلى مراحل.

٢ – استنباط سمات وخصائص كل مرحلة دعوية.

٣ – عدم الالتفات إلى أحداث السيرة التي سبقت البعثة، وأول ما يهتم به الاتجاه بدء الدعوة الإسلامية سرا.

لذلك فإننا نجد منير الغضبان حين أراد تطبيق المنهج في كتابة السيرة ابتدأ كتابه ببدء الوحي، ثم قسم أحداث السيرة حتى وفاته صلى الله عليه وسلم إلى خمسة مراحل.

الأولى: سرية الدعوة وسرية التنظيم

الثانية: جهرية الدعوة وسرية التنظيم

الثالثة: إقامة الدولة

الرابعة: تثبيت دعامات الدولة

الخامسة: انتشار الدعوة في الأرض[٣٥].

فلما أراد الكلام عن المرحلة الأولى (سرية الدعوة وسرية التنظيم) حددها زمنيا، ثم انتقل لاستنباط سماتها والكلام عن ذلك تفصيلا...؛ وعلى العموم

---

(٣٤) الغضبان، التفسير الحركي للسيرة النبوية ج ١ ص ١٥

(٣٥) نفس المرجع ج١ ص ١٦

يبقى هذا الاتجاه حديث النشأة ولايزال التأليف والكتابة فيه محدودين، وإذا كانت السيرة النبوية تقدم للمسلم العديد من الأحكام والعبر فيما يتعلق بطريقة دعوة الناس إلى دين الله فإنه من الصعب أن تتطابق طريقة الدعوة إلى الإسلام على عهد النبوة مع ما تتطلبه المرحلة الراهنة، وبخاصة حين ننظر إلى التطور الكبير الذي طرأ على حياة البشر.

المطلب الثالث

الاتجاه الموضوعي في كتابة السيرة

يهتم هذا الاتجاه بغرضين اثنين:

١ – كتابة السيرة النبوية من خلال مصدر معين من المصادر الأصلية.

٢ – التأليف في جانب معين من حياته صلى الله عليه وسلم.

فمن النوع الأول كتابة السيرة اعتمادا على القرآن الكريم فحسب؛ باعتباره أول المصادر الأصلية التي اعتمدها عليها القدامى والمحدثون.

ومن هذه التآليف:

- " سيرة الرسول مقتبسة من القرآن الكريم " لمحمد عزة دروزة ت ١٤٠٤ هـ، صدرت الطبعة الثانية لهذا الكتاب عام ١٣٨٤ هـ بالقاهرة.
- " السيرة النبوية في القرآن الكريم " للدكتور عبد الصبور مرزوق الذي قدم إلى المؤتمر العالمي الثالث للسيرة النبوية بالدوحة ١٤٠٠ هـ وطبع أكثر من مرة[٣٦]...

والمؤلفون في هذا المنحى يختارون مصدرا أصليا للسيرة كالقرآن أو شعر صدر الإسلام أو كتب السنة... ثم يجمعون أخبار السيرة من خلال ذلك المصدر ويعمدون إلى ترتيبها وتنقيحها...

---

(٣٦) ويمكننا أن نضيف إلى الكتابين السابقين مؤلف " القرآن والنبي " للدكتور عبد الحليم محمود...

أما الغرض الثاني الذي اتجه إليه التأليف الموضوعي: فهو الكتابة عن جانب معين من حياته صلى الله عليه وسلم، ومن أمثلة ذلك:

- " محاضرات عن محمد صلى الله عليه وسلم والمرأة " لعبد القادر المغربي ت ١٣٧٥ هـ طبع عام ١٣٤٧ هـ[٣٧].
- " نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن " للدكتور حسن ضياء الدين عتر، والكتاب في أصله قسم من أطروحة دكتوراه قدمت للأزهر عام ١٣٩١ هـ، صدرت طبعته الأولى عام ١٣٩٣ هـ.

ويمكننا أن ندرج ضمن التآليف في هذا الغرض أيضا:

- " الوحي المحمدي " لمحمد رشيد رضا ت ١٣٥٤ هـ.
- " نساء النبي صلى الله عليه وسلم " لعائشة عبد الرحمن ت ١٤١٨ هـ.
- " الرسول القائد " لمحمود شيت خطاب، طبع ببغداد ١٣٨٠ هـ.
- عدد من مؤلفات أبي تراب الظاهري (ت ١٤٢٣هـ) وهي " سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم – الأثر المقتفى لقصة هجرة المصطفى – ذهول العقول في وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم – وفود الإسلام – أصحاب الصفة – صفة الحجة النبوية."

وقد يلجأ بعض المؤلفين إلى المزج بين الغرضين السابقين معا عن طريق التأليف في جانب معين من السيرة من خلال مصدر واحد من مصادرها الأصلية، ومن ذلك على سبيل المثال:

- " اللباس في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم: دراسة مستمدة من مصادر الحديث النبوي الشريف " للدكتور محمد بن فارس الجميل[٣٨].

---

(٣٧) هذا المؤلف أتى في سياق حملة هاج فيها الناس على الكاتب بسبب دعوته إلى سفور المرأة ومخالطتها للرجال على شاكلة نساء أوربا... وذلك عندما نشر عقب وفاة صفيه قاسم أمين عام ١٩٠٨ م كتيبا عنوانه:" كلمتان في السفور والحجاب " عام ١٩١٠م؛ وربما كان " محاضرات عن محمد صلى الله عليه وسلم والمرأة " محاولة من الكاتب للتراجع حين تقدم به العمر.

(٣٨) طبع هذا الكتاب ضمن حوليات كلية الآداب جامعة الكويت، الرسالة ٩١ الحولية ١٤/ ١٤١٤-١٤١٥هـ

- "الأطعمة والأشربة في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم"..لنفس المؤلف[٣٩].

المطلب الرابع
الاتجاه الأدبي في كتابة السيرة

يهتم بكتابة السيرة بأسلوب مبسط جدا ومشوق، كما يعتمد على تدوين خواطر الكاتب حين يقف على أحداث عصر النبوة، وهو اعتبارا لذلك ليس كتابة علمية موثقة المصادر بقدر ما هو مجموعة من المشاهد الوجدانية، لا يهتم كاتبها بالحدث التاريخي وبضبطه وصحته بقدر ما يهتم بجانب التشويق والإثارة فيه، والاتجاه الأدبي في كتابة السيرة بهذا المعنى متأثر بأسلوب أدبي معاصر هو أسلوب "فن القصة".

وأكثر التآليف التي سارت في هذا الاتجاه ارتبطت بالإنتاج "التلفزيوني" مثل كتابات أحمد جودة السحار التي تحولت إلى مسلسلات تلفزيونية تعرض لأحداث عصر النبوة، وأبرز نموذج جسد الاتجاه الأدبي في السيرة هو كتيب د.عائشة عبد الرحمن "مع المصطفى في عصر المبعث" الصادر عام ١٩٦٩م.

فالمؤلفة لم تعتن بالأخبار وتوثيقها ولم تلتفت لاستنباط فقه الروايات وعبرها...، وإنما دونت في الكتيب مجموعة من الخواطر الوجدانية التي عاشتها في مناسبة أحد شهور رمضان؛ لذلك وجدناها تقول في مقدمة الكتيب: "... وفي فيض من سنا الشهر المبارك أسلم نفسي إلى تأمل مستغرق... وعشت بوجداني وفكري مع المصطفى عليه الصلاة والسلام من غار حراء إلى مثواه في المدينة المنورة. حتى إذا وصلت بي رحلتي الوجدانية إلى نهاية عصر المبعث لم أشأ بل لم أستطع أن أفرغ منها وأنصرف عنها، فكأني إذ أعكف على كتابتها أطيل مدى أنسي بها...، وما أقدمه إلى قومي من حديث هذه الرحلة

---

(٣٩) طبع أيضا ضمن نفس الحوليات، الرسالة ١١٤، الحولية ١٧- ١٤١٧هـ

مع المصطفى عليه الصلاة والسلام ليس التاريخ وليس السيرة، وإنما هي مشاهد مما اجتليت، سيطرت على خواطري، ومشاهد شدت إليها تأملي بجاذبية آسرة، وارتبط فيها الماضي الحي بالحاضر المشهود... "[٤٠].

على أنه مما تجدر الإشارة إليه أن الحرص على التشويق أو الإثارة كثيرا ما دفع المؤلفين في هذا الاتجاه إلى اعتماد أخبار واهية في السيرة رغم وجود أحاديث صحيحة ثابتة في نفس المشهد أو الحدث[٤١]، ولعل هذا السبب أيضا هو الذي جعل هؤلاء يهملون توثيق الروايات أو عزوها إلى المصادر أو الموارد التي اعتمدوها.

هذا والكتابات الأصيلة في السيرة النبوية كثيرة لا يتسع المجال لعرضها جميعا وهي متفاوتة في مضمونها العلمي، ويعتبر مسلمو الهند أغزر إنتاجا في هذا الموضوع خلال النصف الثاني من القرن الرابع عشر الهجري، ومن أبرز من كتب منهم في السيرة باللغة الأردية: شبلي النعماني، والقاضي محمد سليمان الفوري، وعبد الرؤوف الدانابوري، ومحمد حميد الله، ومحمد أكبر خان وسليمان الندوي، فضلا عن تآليف الهنود باللغة العربية، وأشهرها كتاب أبي الحسن الندوي السابق وكتاب "الرحيق المختوم" لصفي الرحمن المبارك فوري الحاصل على جائزة رابطة العالم الإسلامي.

---

(٤٠) عائشة عبد الرحمن، مع المصطفى في عصر المبعث ص ٩-١٠

(٤١) انظر على سبيل المثال المرجع السابق ص ١٧

الفصل الثاني
الاتجاهات المنحرفة في كتابة السيرة

كثرت هذه الاتجاهات خلال العصر الراهن، واتخذت ألوانا شتى، وقد ساهم في ظهور العديد منها رواج مختلف الفلسفات التغريبية التي غزت العالم الإسلامي خلال العقود الأخيرة...، وإذا نظرنا نظرة متأنية في نشأة وتطور هذه الاتجاهات المنحرفة فسنجد انحرافها يرجع للأسباب الرئيسة التالية:

- التعصب للمذهب العقدي
- الجهل بالعلم
- السعي في هدم الإسلام ونقض عراه.
- الرغبة في نشر مدنية التغريب.

وهذه الاتجاهات المنحرفة أقسام ثلاثة متميزة:

فتدخل فيها – أولا – تلك التآليف المذهبية في السيرة.

ثم هناك – ثانيا – تلك الكتابات التغريبية التي خاضت في هذا الموضوع.

وأخيراً هناك كتابات ومنشورات لفيف من المستشرقين.

المبحث الأول
التآليف المذهبية في السيرة النبوية

ظهرت هذه التآليف مع بعض الكتاب من الشيعة في لبنان والعراق بخاصة حيث درج هؤلاء في مؤلفاتهم عن السيرة إلى التكلف في الانتصار لمذهبهم والتمحل في الاستدلال على آرائهم ولو أدى بهم ذلك إلى التعسف في تأويل النصوص أو تصحيح الموضوع والضعيف من الأخبار أو الطعن في الثابت من الأحاديث وهذه التآليف المذهبية ألوان ثلاثة:

الأول منها لا يخفى نزعاته الطائفية

واللون الثاني يستر نزعته الطائفية بمنطق استدلالي فلسفي.

واللون الثالث اختار الطائفية سلماً للشهرة.

بناء عليه يمكن تقسيم النزعات المذهبية في كتابة السيرة إلى ثلاثة اتجاهات:

- الاتجاه الطائفي.
- الاتجاه الفلسفي.
- الاتجاه الانتقائي.

المطلب الأول

الاتجاه الطائفي في كتابة السيرة

كان هم أصحاب هذا الاتجاه جمع أخبار السيرة مع الحرص على إبراز تلك المتصلة منها "بآل البيت" (علي وبنوه) ولو كانت أخباراً ضعيفة أو واهية، مع التعريض بالأحاديث التي فيها ذكر لجلة الصحابة الذين لم يعرف عنهم تعصب "لآل البيت" بهذا المفهوم الرافضي الضيق... ومن التآليف التي سارت في هذا الاتجاه:

- "سيرة سيد المرسلين" لجعفر سبحاني.
- "الصحيح من سيرة النبي الأعظم" لجعفر العاملي.
- "سيرة المصطفى: نظرة جديدة" لهاشم الحسني.

وأكثر هذه الكتب رواجا " سيرة المصطفى: نظرة جديدة "... وهو فضلا عن ذلك جسد خصائص هذا الاتجاه في كتابة السيرة.

فحرص على التعريض ببعض الصحابة – رضي الله عنهم – كأبي هريرة الذي ادعى أنه اختلق أخبار اشتغاله صلى الله عليه وسلم في صباه ويفاعه بالرعي[٤٢] كما حرص المؤلف على إنكار الأخبار التي جاءت في فضل عمر بن

---

(٤٢) هاشم الحسيني، سيرة المصطفى: نظرة جديدة ص ١٩٦.

الخطاب كتلك المتعلقة بطريقة الآذان للصلاة[٤٣]... في المقابل احتفل بإسلام علي رضي الله عنه مرجحا أنه أول من آمن به صلى الله عليه وسلم حين كان عمره رضي الله عنه أربعة عشر سنة وأنه تقدم أبا بكر[٤٤] !!!

كما وجدنا مؤلف " سيرة المصطفى: نظرة جديدة " يتعامل مع معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بمنهج تأويلي على طريقة المعتزلة قديما[٤٥] ومن ذلك: معجزة شق الصدر[٤٦] التي أخرجها الإمام مسلم وغيره...[٤٧].

وعلى العموم فمباحث هذا الكتاب لا تخلو من تناقض في طريقة اعتماد المؤلف للروايات، فأحيانا نجده يتساهل كثيراً كما وقع له بأخبار أبي طالب في الجاهلية، وأحيانا يطعن في الصحيح الذي تناقله الناس في الإسلام إذا كان فيه فضل لغير الشيعة !!!

المطلب الثاني

الاتجاه الفلسفي في كتابة السيرة

وهو اتجاه معاصر يستغل المنطق العقلي المجرد غطاء لستر نزوعه الطائفي، وتبرير تعصبه لمذهب الشيعة، ولا يختلف في بقية الخصائص عن الاتجاه السابق، وقد جسد هذا الاتجاه:

- محمد باقر الصدر ت ١٤٠٠ هـ في كتيب " المرسل – الرسول – الرسالة "

---

(٤٣) المرجع السابق ص ٢٧٣

(٤٤) نفسه ص ١١٣

(٤٥) ورحم الله الحافظ الذهبي حين قال في ترجمة الرماني ضمن " ميزان الاعتدال " ج ٥ ص ١٧٩– ١٨٠ " ومن حدود سبعين وثلاثمائة إلى زماننا هذا تصادق الرفض والاعتزال وتواخيا "، وكلام الحافظ لازال يصدق حتى على رافضية العصر الراهن.

(٤٦) هاشم الحسيني، سيرة المصطفى ص ٤٦.

(٤٧) وأنظر طعن المؤلف في أسانيد حديث الإفك المشهور ضمن " سيرة المصطفى " ص ٤٨٩

- آمنة بنت الهدى (أخت باقر الصدر) ت ١٤٠٠ هـ في: "المرأة مع النبي في حياته وشريعته" وكلا الكتابين صدرا عن دار التعارف للمطبوعات بيروت.

ففي الكتاب الأول عمد المؤلف عند كلامه عن "الرسول والرسالة" إلى تحرير مبحث مهد فيه لظاهرة النبوة(٤٨)، وآخر لإثبات نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم بالأدلة العقلية أو ما يسميه "الاستقراء العلمي"(٤٩) وبعد تفصيل ذلك انتقل للكلام عن خصائص "الرسالة الإسلامية" التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام، ثم ذيل بالكلام عن ختم النبوة وما يستوجبه من "أوصياء" على الرسالة...

قال: "وقد اقتضت الحكمة الربانية التي ختمت النبوة بمحمد صلى الله عليه وسلم أن تعد له أوصياء يقومون بأعباء الإمامة والخلافة بعد اختتام النبوة، وهم اثنا عشر إماما، وقد جاء النص على عددهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله في أحاديث صحيحة اتفق المسلمون على روايتها..."(٥٠).

أما بالنسبة لكتاب "المرأة مع النبي في حياته وشريعته" فرغم هذا العنوان الذي صدر به المنشور إلا أن مضمونه كله كان يتعلق بإثبات فرضية جهدت الكاتبة نفسها لأجلها، وهي أن فاطمة رضي الله عنها هي الذرية الوحيدة للنبي عليه الصلاة والسلام، أما شقيقاتها زينب ورقية وأم كلثوم فإنهنَّ أولاد خديجة رضي الله عنها من زواج سابق !!! ولتصديق هذه الفرضية – التي لا تخفى خلفياتها المذهبية – انساقت الكاتبة في حجاج طويل... كالاحتجاج بسن خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حين تزوجها النبي صلى

---

(٤٨) محمد باقر الصدر، الرسول والمرسل والرسالة ص ٦٥.

(٤٩) المرجع السابق ص ٧٨

(٥٠) نفسه ص ٨٩...، والأحاديث التي يقصد الكاتب هي تلك الأخبار التي أدرجها أبو جعفر الكليني ت ٣٢٩ في " الأصول من الكافي " ضمن أبواب كتاب الحجة وهي مرويات لا يلتفت إليها إلا الرافضة...

الله عليه وسلم وأنه لا يسمح لها بإنجاب أولاد النبي صلى الله عليه وسلم الذين نسبوا إليها... وهذا من تكلف الكاتبة وتعسفها، انتصارا لآرائها المذهبية، وقد صدر كتيب " المرأة مع النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وشريعته عن دار التعارف بلبنان.

المطلب الثالث

الاتجاه الانتقائي في كتابة السيرة

وجد في العصر الراهن من كتب في السيرة وحرص في كتابته على إذكاء الفتنة والخلاف عن طريق إبراز تعصبه لما شذت به فرق الرافضة رغم أنه لا يعرف عنه انتماء لنحلتهم، فيحرص على تفضيل علي رضي الله عنه... والمبالغة في مناقب أبيه – أبو طالب – وأبنائه والنيل من بقية الخلفاء الراشدين ومن سار على طريقتهم من الصحابة رضي الله عنهم.

ومن النماذج المجسدة لهذا الاتجاه: "السيرة النبوية الشريفة" لمحمد بيومي مهران...، والحق أن هذا المؤلف تأسى بمحمود أبي رية حينما جمع مختلف مطاعن الرافضة في كتب الحديث المعتمدة ونشرها على الناس في منشوره " أضواء على السنة النبوية "[٥١] وجريا على نهج الرافضة ادعى بيومي مهران أن السيرة دونت أيام حكم الأمويين الذين كانوا أعداء لأبناء علي ابن أبي طالب، وكانت هذه العداوة سببا في إغفال المدونين من أهل السنة لكثير من فضائل العلويين[٥٢] التي حرص الكاتب على إثبات عدد منها، كخبر

---

(٥١) سبق لي التعرض لهذا الموضوع ضمن دراسة عن " نزعة رفض الاحتجاج بالسنة في كتابات المعاصرين " ضمن مجلة الأحياء عدد رمضان ١٤١٦ ص ٢١٣– ٢٣٦ وانظر في نفس الموضوع: د. عمر الأشقر، " أضواء على مذاهب الذين رفضوا الاحتجاج بالسنة " مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد ٦ ص ١٣–٦٢ عام ١٤٠٦هـ.

(٥٢) محمد بيومي مهران، السيرة النبوية الشريفة ج ١ ص ١٤٣– ١٤٤.

وفاته صلى الله عليه وسلم في حجر علي، وليس في حجر عائشة زوجه[٥٣]، وكحديث الوصية لعلي[٥٤] إلى غير ذلك... وكتاب " السيرة النبوية الشريفة " لبيومي مهران صدر في ثلاثة مجلدات.

ولأنه سار على هذا النهج فقد استحق التنويه من قبل المشتغلين بالسيرة من الرافضة المعاصرين، فنجد السيد محمد الحسيني – من العراق – في دراسة له عن موضوع " الاتجاهات العامة المعاصرة في دراسة السيرة النبوية "[٥٥] اعتبر كتاب مهران متميزا بنزعته النقدية الواضحة نتيجة تخلصه من طغيان الأسر المذهبي...[٥٦] ولو وصف هذا الكاتب مع كتابه بنقيض ذلك لما أبعد الواصف النجعة !!.

المبحث الثاني
اتجاهات تغريبية في كتابة السيرة النبوية

لعله من الأنسب: الإشارة – مقدما – إلى أن طائفة من الكتاب الذين ساهموا في هذه الاتجاهات التغريبية درسوا في أوربا، وكثير منهم لم يعرفها، لكنه أشرب في وجدانه مدنيتها وتصوراتها المادية، والذي يكاد يتفق عليه هؤلاء التغريبيون هو إنكارهم للغيبيات، أو شكهم وارتيابهم فيها، ثم تصورهم لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه زعيم أو مصلح أكثر منه رسول اصطفاه الله بالوحي والنبوة. وتتفرع الاتجاهات التغريبية بحسب تصورات أصحابها إلى أقسام:

فهناك الاتجاه العقلي التأويلي

ثم هناك الاتجاه الوضعي

---

(٥٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٥٣٨.
(٥٤) نفسه ج ١ ص١٨٦
(٥٥) محمد الحسيني، الاتجاهات العامة في دراسة السيرة النبوية ضن فصلية " المنهاج" – بيروت – العدد ٦ عام ١٤١٨ ص ١٦٠– ٢٠٠
(٥٦) المرجع السابق ص ١٨٨– ١٨٩

ثم الاتجاه الماركسي (المادي التاريخي)

وأخيرا الاتجاه البنيوي (نسبة إلى فلسفة كلود ليفي ستروس).

المطلب الأول

الاتجاه العقلي التأويلي

برز هذا الاتجاه خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة؛ وبفعل عامل الانبهار بالمدينة المادية التي بدأت تغزو العالم الإسلامي وجدنا بعض المؤلفين في السيرة النبوية يستفرغون جهودهم لأجل تأويل أو إنكار الغيبيات التي جاءت في السيرة كمعجزاته صلى الله عليه وسلم الكثيرة طالما أنها جزء من " الخوارق " التي لا تخضع للتصور المادي الصرف.

ومن التآليف التي سارت في هذا الاتجاه:

- " حياة محمد " لمحمد حسين هيكل
- " السيرة المحمدية " لمحمد فريد وجدي...

والذي يرجع إلى مثل هذه الكتابات يجد أصحابها أبعد ما يكون عما يقتضيه التخصص في الدراسات الإسلامية، وحين أرادوا الخوض في مجال السيرة النبوية لم يجدوا سبيلا غير التسور على هذا العلم بدعوى " البحث العلمي الحديث "، ووجدنا هيكل يقول في كتابه عن حياة محمد:" لكني رأيت من الخير أن أتبسط بعض الشيء في بيان الأسباب التي دعت المفكرين من أئمة المسلمين فيما مضى – وتدعوهم اليوم كما تدعو كل باحث مدقق – إلى عدم الأخذ جزافا بكل ما ورد في كتب السيرة وفي كتب الحديث، وإلى التقيد بقواعد النقد العلمي تقييدا يعصم من الزلل ما استطاع الإنسان أن يعصم نفسه منه "[٥٧].

---

(٥٧) هيكل، حياة محمد ص ٤٧

على أن التقيد بهذه القواعد " العلمية " التي دعا إليها الكاتب هو الذي أخرج إلينا كتابا عن " حياة محمد " كل ما يفهمه منه القارىء أن التفكير والذكاء هما عماد حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أثر للوحي في حياته عليه السلام(٥٨)، وكتاب هيكل في أصله ترجمة معدلة لكتاب الفرنسي إميل درمنغم E.dermenghem عن "حياة محمد" la vie de mahomet الصادر بالفرنسية عام ١٩٢٩م، ونشرته مطبعة البابي الحلبي قبل عقود مترجما إلى العربية من طرف عادل زعيتر.

وقد وجد في البيئة الإسلامية من تصدى لهذا الاتجاه العقلي التأويلي في الكتابة عن السيرة؛ إذ أن مؤلفي هيكل ووجدي لا يكادان يختلفان عن كتابات سائر المستشرقين ممن ينكرون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم...، وقد قام ضد هذا المنحى التغريبي طائفة من العلماء لعل أبرزهم – زمن رواج هذا الاتجاه – الشيخ مصطفى صبري ت ١٣٧٧ هـ الذي تعقب هذا الاتجاه بالنقد والتحليل في كتابه الأشهر " موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين وعباده المرسلين "(٥٩).

المطلب الثاني

الاتجاه الوضعي في كتابة السيرة

انفرد هذا الاتجاه بخاصيتين:

- الأولى: اعتبار النبي صلى الله عليه وسلم مثل سائر " مشاهير " العرب في وقته ممن توفر لهم نصيب من العبقرية والذكاء فأهلهم ذلك للظفر بمكانة خاصة...
- الثانية: النظر إلى أخبار السيرة على أنها مجموعة من الحكايات التي لا

(٥٨) أنظر "د. فاروق حمادة، مصادر السيرة النبوية وتقويمها ص ١١٧.
(٥٩) أنظر: مصطفى صبري، موقف العقل والعلم والعالم...ج ١ ص ٢٥ وما بعدها...

تختلف عن سير وأساطير القدامى[٦٠].

ومن أشهر التآليف التي سارت في هذا الاتجاه:

- " على هامش السيرة " لطه حسين ت ١٣٩٣ هـ.
- "عبقرية محمد " لعباس محمود العقاد ت ١٣٨٣ هـ[٦١].

وبالنسبة لكتاب " على هامش السيرة " فإن مقدمته تكشف عن طبيعة تصور مؤلفه لعلم السيرة الذي لا يعدو مجموعة من الحكايات التي تشبه الإلياذة عند الإغريق، وتبعا لهذا التصور وجدنا طه حسين يصف كتابه عن السيرة بقوله:" هذه صحف لم تكتب للعلماء ولا للمؤرخين، لأني لم أرد بها إلى العلم ولم أقصد بها إلى التاريخ، وإنما هي صورة عرضت لي أثناء قراءتي للسيرة فأثبتها مسرعا، ثم لم أر بنشرها بأسا، ولعلي رأيت في نشرها شيئا من الخير، فهي ترد على الناس أطرافا من الأدب القديم قد أفلتت منهم وامتنعت عليهم..."[٦٢].

والنظر إلى علم السيرة على أنه مجموعة " حكايات "... هو الذي أوحى لطه حسين بوضع طائفة من الأخبار كما اعترف بذلك في مقدمة الكتاب "..وأحب أن يعلم الناس أيضا أني وسعت على نفسي في القصص ومنحتها من الحرية في رواية الأخبار واختراع الحديث ما لم أجد به بأسا إلا حين تتصل الأحاديث والأخبار بالنبي أو بنحو من أنحاء الدين... "[٦٣].

---

(٦٠) قال طه حسين في مقدمة " على هامش السيرة ":" فأحاديث العرب الجاهليين وأخبارهم لم تكتب مرة واحدة، ولم تحفظ في صورة بعينها، وإنما قصها الرواة في ألوان من القصص، وكتبها المؤلفون في صنوف من التآليف، وقل مثل ذلك في السيرة نفسها، فقد ألهمت الكتاب والشعراء في أكثر العصور الإسلامية وفي أكثر البلاد الإسلامية أيضا، فصوروها صورا مختلفة تتفاوت حظوظها من القوة والضعف والجمال الفني..."

(٦١) أفرد هذين الكتابين بالدراسة ذ. غازي التوبة في الفكر الإسلامي المعاصر: دراسة وتقويم ص ١٠٧– ١١٠، ص ١٤٥– ١٥٢.

(٦٢) طه حسين، على هامش السيرة، المقدمة ص: هـ

(٦٣) المرجع السابق ص: ك

ومما لم يجد طه حسين بأسا في اختراعه ووضعه – على سبيل المثال – : ما وضعه على لسان أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من حديث شنيع لا يأتي به إلا خيال أهل المجون، وذلك في الفصل المعنون ب "راعي الغنم" ضمن الجزء الثاني... وفقرات هذا الحديث الساقط مما لا يمكن نقله إلى القاريء تبعا لما يقتضيه مقام نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم(٦٤).

وإذا كان طه حسين قد رأى في السيرة النبوية مجموعة من الحكايات التي يمكنه أن يتصرف فيها بخياله، فإن معاصره العقاد انتهى إلى تصور سيرة نبي الإسلام على أنها حياة عبقري موهوب...

ويعرف العقاد مفهوم العبقرية بأنها: "... قيمة في النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق، وهي وحدها قيمة يغالى بها التقويم... فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية وميزان العمل وميزان العقيدة... فهو نبي عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم "(٦٥) وظاهر من كلام الكاتب أن مفهوم " العبقرية " هو القيمة والوصف الذي ترجح به شخصية محمد صلى الله عليه وسلم، وظاهر أيضا أن هذا الوصف إنما ابتدعه تصور الكاتب ليحل مكان الوحي والرسالة اللتين أكرم الله تعالى بهما نبيه عليه الصلاة والسلام؛ ولن يخفى على قاريء مقدمة كتاب " عبقرية محمد " أن العقاد انطلق في تأليفه عن الموضوع مما حرره الكاتب الإنجليزي توماس كارليل في كتاب " الأبطال " عن حياة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام(٦٦).

واعتبارا لذلك فمؤلف "عبقرية محمد" "لم يقصد وقائع السيرة لذاتها... وليس الكتاب شرحا للإسلام... إنما الكتاب تقدير لعبقرية محمد بالمقدار الذي

---

(٦٤) نفس المرجع ج ٢ ص ١٣٧

(٦٥) عباس محمود العقاد، عبقرية محمد ص ١٥–١٦، والنص غني عن التعليق...

(٦٦) المرجع السابق ص ١٠، ولله در الرافعي حين وصف العقاد بأنه" يكتب البريد الأدبي الوارد من أنجلترا"...

يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى...، وبالحق الذي يبث له الحب في قلب كل إنسان وليس قلب كل مسلم وكفى..."[٦٧].

على أن تقدير العقاد "لعبقرية محمد" هو الذي حفزه لوضع رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم في موضع المقارنة مع نابليون في أكثر من موضع في كتابه[٦٨] كما عمد إلى مقارنته – أيضا – بديكتاتور النارية أدولف هتلر[٦٩] بخاصة، وقد تصادف تأليف الكتاب مع أحداث الحرب العالمية الثانية، بل وجدنا العقاد أيضا يقارن صلح الحديبية بطريقة مقاومة غاندي للاستعمار البريطاني في الهند؛ ليصل إلى نتيجة هي "أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجري في حينه مع مناسباته وأسبابه..."[٧٠] والخلاصة التي يصل إليها قارىء "عبقرية محمد" هي أن الكاتب لما لم يلتفت إلى ظاهرة الوحي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وعوضها بالعبقرية سهل عليه السير على طريقة الغربيين في الكتابة عن حياة الأنبياء ومقارنة هديهم وسيرتهم بأحداث حياة الزعماء والرؤساء من كل ملة أو نحلة، وفي هذا المستوى يتجلى الخطأ الذي يقع فيه بعض المعاصرين حين يكتبون عن السيرة، مجردين صاحبها عليه الصلاة والسلام مما اصطفاه الله به من نعمة الوحي والرسالة... وفي سياق هذا الموضوع قال الأستاذ غازي التوبة تعليقا على مسلك العقاد هذا: "... لذلك نخطيء كثيرا حينما نزن محمدا عليه الصلاة والسلام بكفة العبقريات البشرية الأخرى، لا لشيء بل لاختلاف في النوع وانعدام في الصلة، فكما أننا لا نزن الأثقال بالأمتار – وذلك لا يزري بالموزون ولا يرفع من قدر الزنة – كذلك يجب ألا نزن شخصية محمد وتكوينه بفلان العبقري من الناس..."[٧١].

---

(٦٧) نفس المرجع ص ١٣
(٦٨) انظر عبقرية محمد ص ٤٦– ٥٠ – ١٥٦...
(٦٩) نفس المرجع ص ٥٧
(٧٠) نفسه ص ٧٩
(٧١) غازي التوبة، الفكر الإسلامي المعاصر.. ص ١٤٩

المطلب الثالث

الاتجاه المادي التاريخي في كتابة السيرة

لما بدأ التبشير بالماركسية في العالم الإسلامي مستهل القرن العشرين اتجه دعاتها إلى النيل من الدين صراحة؛ مما جعل الماركسية والماركسيين يظلون متقوقعين في عزلة تامة وسط البيئات التي ظهرت فيها هذه الأيديولوجية بمختلف الدول الإسلامية.

ولما رجع منظرو الماركسية للبحث في أسباب هذه العزلة وجدوها تجتمع في طبيعة دين الإسلام وعقيدة التوحيد...، ولأجل الخروج من هذه الوضعية اتجه هؤلاء المنظرون إلى طريقة احتيالية تقوم على أساس الاهتمام الانتهازي بالتراث الإسلامي وإخضاعه للتفسير المادي التاريخي الذي هو لباب إيديولوجيتهم...

وابتداء من عقد الستينات من القرن العشرين ظهرت في المكتبات منشورات عن التفسير المادي لتاريخ الإسلام وللفكر الإسلامي ولعلم الكلام... والتفسير المادي التاريخي للسيرة النبوية المشرفة أيضا !!!

ومن الماركسيين العرب الذين كتبوا في موضوع السيرة:

عبد الرحمان الشرقاوي ت ١٩٩١ في "محمد رسول الحرية"

طيب تيزيني في "مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر"

سيد قمني في "حروب دولة الرسول"

وبالنسبة للكتاب الأول "محمد رسول الحرية" فقد أثار عند نشره في مصر – طائفة من العلماء؛ لتشكيكه فيما هو معلوم من الدين، ولجرأته على القرآن الكريم الذي اعتبره من تأليف الرسول عليه السلام؛ وقام الشيخ محمد أبو زهرة ت ١٩٧٤ هـ رحمه الله بكتابة تقرير عن هذا الكتاب حتى يتم وقف توزيعه لكن تقريره لم يلتفت إليه[٧٢].

---

(٧٢) أنظر التقرير في كتاب: أبو زهرة وقضايا العصر لأبي بكر عبد الرزاق ج ٣ ص ١٦٢– ١٧٢.

وبالرجوع إلى كتاب " محمد رسول الحرية " نجد المؤلف يقدم الرسول صلى الله عليه وسلم على أنه ثائر اجتماعي وليس رسولا يوحى إليه...، وقد اختار الكاتب أن يترجم لكتابه بجملة مقتطعة من آية وهي (إنما أنا بشر مثلكم) وضعها مع العنوان لتوحي للقاريء بالمعنى الذي يقصده المؤلف بشأن بشرية الدعوة الإسلامية...

ولتأكيد هذا المعنى ولإبراز أن الرسول عليه السلام ليس أكثر من رجل له آراء اجتماعية عمد إلى مشاهد من السيرة ففسرها حسب هواه:

- فالوحي في غار حراء إنما كان حسب دعوى الكاتب حلما في المنام(٧٣).
- وسورة المسد إنما هي كلام محمد صلى الله عليه وسلم حين كان يجادل أبا لهب، وليست قرآنا أنزل من الله وحيا(٧٤).
- وتقسيم الغنائم عقب غزوة بني النضير إنما كان منه صلى الله عليه وسلم فحسب(٧٥)..وكثيرة هي الأحكام التي جاءت في القرآن... لكن مؤلف " محمد رسول الحرية " حرص على التكلف من أجل نسبتها إليه صلى الله عليه وسلم؛ حتى يسلم له معتقده بخصوص بشرية القرآن وبخصوص الصفة التي أضفاها على رسول الإسلام...

أما بالنسبة للطيب تيزيني مؤلف " مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر " فيقدم لنا صورة " صادقة " لمنهج تعامل الماركسيين العرب مع السيرة النبوية بصفة خاصة والعلوم الإسلامية بصفة عامة.

كان تيزيني قد أرسل من سوريا إلى ألمانيا الشرقية – أيام حكم الشيوعيين – لأجل تحضير درجة الدكتوراه، فتتلمذ على المستشرق يوهان فوك ت ١٩٧٤م مؤلف كتاب "الثقافة العربية والإسلام في العصور

---

(٧٣) الشرقاوي، محمد رسول الحرية ص ٦٨– ٦٩

(٧٤) المرجع السابق ص ٨٧

(٧٥) نفسه ص ٢٥٥.. والحكم ثابت بنص القرآن في سورة الحشر الآية ٨ وما بعدها...

الوسطى..."، لكن تيزيني لم يلبث أن أشرب في وجدانه أفكار أستاذه في كتابه السابق الذي ضمنه تفسيرا ماركسيا لظهور الدعوة الإسلامية وتطورها...[٧٦].

وبعد رجوع تيزيني إلى سوريا بدأ "يبشر" في كتبه بما يرى أنه العوامل الاجتماعية والاقتصادية لنشوء الإسلام، مدعيا "أن نزاع (الرسول) مع الملأ المكي حمل بشكل متوسط وغير مباشر مضمونا سياسيا واجتماعيا – اقتصاديا وفكريا، وقد استطاع (أي الرسول) كسب العبيد والعوام من خلال قدرته على إقناعهم المباشر بضرورة التمرد على الملإ المكي الظالم، ومن خلال فكرة (وحدانية الإله) التي تستوجب رعية واحدة متساوية أمام الله..."[٧٧].

وفي مناسبة أخرى يقول تيزيني: "... إن (الله) هو إله الجميع، فالتجارة المنفتحة على العالم – وبالتالي الأفكار الشمولية التي طرحت نفسها على مستوى عالمي – كانت قد وجدت في (وحدانية) التصور الديني والعاطفي تبريرا مقبولا وسهل التفهم من قبل مجموعات من الناس تجمعهم وحدة الهدف والسلوك الاجتماعيين..."[٧٨].

كان هذا التفسير المادي التاريخي الذي اقتبسه تيزيني عن كتاب أستاذه ليضمنه أحد فصول كتابه " مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط " – المنشور آخر عقد الستينات من القرن الماضي – هو الذي أوحى إليه بفكرة تأليف كتاب عن السيرة سماه " مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر"، وذلك في أوائل التسعينات من نفس القرن[٧٩].

---

(٧٦) عند التحاق تيزيني بجامعة دمشق عمل على نشر أطروحته تحت عنوان:" مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط"، وغدت خلال مدة جزءا من مقرر مادة " الفلسفة الإسلامية "!!!

(٧٧) تيزيني، مشروع رؤية جديدة... ص ١٥٧.

(٧٨) المرجع السابق ص ٢٠٨

(٧٩) إن الدراسة المقارنة تظهر للقارئ أن التفسير المادي التاريخي لتاريخ صدر الإسلام الذي قدمه تيزيني في مشروع رؤية جديدة ص ١٥٤– ١٩٣ هو نفسه الذي كرره في كتابه الثاني عن " مقدمات أولية..."

ففي هذا الكتاب الأخير يدعي تيزيني أن عقيدة (التوحيد) هي " اختراع داخلي لغرض ردم العوائق التي أخذت تهدد حاضرة مكة اقتصاديا "[٨٠]... ومن تم فعقيدة التوحيد التي دعا إليها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت " تلبي حاجة الاقتصاد المكي المهدد بالانهيار..."[٨١] وحسب تصورات المؤلف فقد أدى نشاط تجار ومرابي مكة إلى ظهور أغلبية من الفقراء المعدمين والرقيق وأقلية ضئيلة من الأثرياء، وكان استمرار نشاط التجار المرابين سيؤدي إلى القضاء على مجتمع مكة، فجاء الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا إلى التوحيد – الذي " ليس غريبا عن هذا المجتمع " – وكان الهدف من دعوته إلغاء الفوارق الطبقية؛ صيانة لكيان المجتمع المكي...

وإذا صابر قارىء كتاب " مقدمات أولية... " وتابع مع تيزيني فصول مؤلفه بما تضمنه من غرائب وتناقضات وأخبار كاذبة مثل ادعاءاته عن " مؤامرات خطيرة حاكها ورقة بن نوفل بمعونة خديجة لاستدراج محمد "[٨٢]... حتى إذا انتهى القارىء خلص إلى فكرة وحيدة يريد تيزيني أن يبشرنا بها هي أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن نبيا مبعوثا من الله إلى الناس، بل كان – حسب هذا التفسير المادي– ثائراً (أحمر) على أوضاع بيئته الاقتصادية، وتلك إحدى " عجائب " التأليف في السيرة عند الماركسيين العرب !!!

المطلب الرابع
الاتجاه البنيوي في كتابة السيرة

ارتبطت البنيوية بفلسفة "المُعَمَّر" الفرنسي كلود ليفي ستروس الذي اتجه قبل أكثرمن نصف قرن إلى جمع ودراسة عادات وتقاليد المجتمعات

---

(٨٠) تيزيني، مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر ص ١٢١.
(٨١) المرجع السابق ص ١٢٦
(٨٢) نفسه ص ٢٧٠

البدائية في حوض الأمازون، ثم وسط سكان النيبال شمال الهند، لكن في مستهل عقد الستينات من القرن الماضي أصبحت هذه الفلسفة " منهجا " يعنى بدراسة شتى الظواهر الاجتماعية قبل أن يدركها الأفول عام ١٩٦٨ م وتغدو جزءاً من التراث الغربي الذي تجاوزته المعرفة الإنسانية بأوربا. لكن هذه الفلسفة حين أدخلت إلى المتحف في أوربا وجدت من سعى لأجل ترويجها خارج بيئتها بالعالم الإسلامي، فطبقت في مجال دراسة الأدب العربي، وظهرت دعوات عدة لتطبيقها في مجال الدراسات الإسلامية، دون أن يكتب لها النجاح...

والاتجاه البنيوي في كتابة السيرة اتجاه تغريبي اهتم بإعلاء " تراث " الجاهلية التي عاصرت ظهور الدعوة الإسلامية بمكة، ورأى أصحاب هذا الاتجاه في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم " إجهازاً " على هذا التراث الإنساني الذي عمل الإسلام على تسفيهه والحط من مكانته وقيمته !!!

ومن المنشورات التي سارت على هذا الاتجاه التغريبي:

كتيب " رودنسون ونبي الإسلام " لحسن قبيسي(٨٣).

وكتيب " شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة " لخليل عبد الكريم...

فبالنسبة للكتيب الأول وهو صغير الحجم – أعده مؤلفه اللبناني لأجل الحصول على درجة الدكتوراه في الفلسفة – فيحيلنا صاحبه على مصادره المنهجية التي اعتمد عليها لدراسة السيرة قائلا:

" إن أبحاث مفكرين من هذا النوع (من نوع ليفي ستروس، برتشارد، سالنز، كلاستر غوشيه...) هي التي أوحت إلي وساعدتني على زعزعة المسلمات التي أشرت إليها، لكنني كنت أحاول أن أجد ما يبرر مقولاتها في تراث ثقافتنا. والواقع أنني وجدت في هذا التراث ما شجعني على المضي في

---

(٨٣) بحكم أن البنيوية لما ظهرت في فرنسا احتلت المجال الذي كانت تسود فيه الماركسية... لذلك لم يكن غريبا أن يتجه قبيسي في مؤلفه إلى التعريض بكتاب المستشرق الماركسي الفرنسي مكسيم رودنسون عن السيرة... وهكذا ينعكس الصراع الإيديولوجي بالغرب عندنا !!

تعزيز افتراضاتي سواء كان هذا التراث معروفا كالبخلاء للجاحظ أو مغمورا كتلك التفاصيل التي لا تلفت النظر والتي تحفل بها كتب السيرة والتاريخ..." (٨٤).

وإذا كان معتمد قبيسي فيما يتعلق بجانب المنهج هو كتابات هؤلاء البنيويين فإنه فيما يتصل بجانب المادة (أي الأخبار)... فلا فرق عنده بين صحيحها وسقيمها لأنها جميعا لا تعبر إلا عن وعي أسطوري... وفي هذا الموضوع قال قبيسي:

" إن اتفاق الرواة على واقعة ليس معياراً لتصديقها، وإنما في ذلك دلالة – على الأرجح – على بنية تفكير الرواة وعصرهم، مثلما أن الواقعة التي لم يجمعوا عليها قد تكون لها أغلب الدلالة... " (٨٥).

وتبعا لتصور البنيويين العرب فإن علماء السيرة حينما جمعوا مختلف الأخبار حولوا أحداثا تاريخية معينة إلى أحداث أسطورية لما أضفوا عليها معاني غيبية... " إن السؤال عن كيفية تحول الحدث التاريخي إلى حدث أسطوري لا يقتصر على واقعة بعينها، كبدر مثلا، أو إسراء النبي إلى المسجد الأقصى ومعراجه إلى السماء... بل يمكن أن يعمم ليشمل الظاهرة المحمدية بأسرها... " (٨٦).

ولا يقتصر تحامل البنيويين العرب ضد علماء السيرة على هذا الجانب، بل اتهموهم أيضا بأنهم قاموا بتشويه تاريخ الجاهلية ورجالها من مشركي مكة... قال:" لم يكن أبو جهل – عدو النبي اللذوذ حسب التعريف الشائع به – رجلا سخيفا، بل كان على درجة من العقل والحلم، فقد تحاكم العرب في

---

(٨٤) قبيسي، رودنسون ونبي الإسلام ص ١٨، والكلام شاهد على جهل الكاتب بعلم السيرة والتاريخ لما اعتبرهما من التراث المغمور !!!

(٨٥) المرجع السابق ص ١٥

(٨٦) نفسه ص ٣٢...

الجاهلية إلى أبي جهل في أيام حداثته، ولذلك أدخلوه دار الندوة، ودفع مع ذوي الأسنان والحكمة من بين جميع الشبان ومن بين جميع الفتيان... "[٨٧]...

وخلف خطوات قبيسي سار خليل عبد الكريم في " شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة " لكنه لم يكتف بتزكية الجاهلية ومشركيها والتنويه بهم[٨٨] بل انتصر – أيضا – لمنافقي يثرب، بخاصة عبد الله بن أبي بن سلول الذي قال عنه "... لكن أخباره التي دونتها كتب السير والتاريخ تفصح عن شخصية متميزة لها آراء على قدر من النضج... "[٨٩].

والاتجاه البنيوي في كتابة السيرة لم يكتف بإعلاء شأن الجاهلية ولا بالأخذ بالآثار الواهية، بل حرص – أيضا – على اعتبار تاريخ صدر الإسلام من " التاريخ البدائي " للبشرية، ومن تم سعى لكي يطبق عليه ما اصطلح عليه " بالأنثروبولوجية البنيوية " التي تعنى بدارسة المجتمعات البدائية...

المبحث الثالث

اتجاهات استشراقية في كتابة السيرة

ألف المستشرقون على اختلاف جنسياتهم وأوطانهم الكثير من الكتب عن حياة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، حتى غدت هذه التآليف تستعصي على العد...، منهم: من دفعه التعصب والحقد إلى تضمين كتابه مختلف الأراجيف والافتراءات، ومنهم من رأى في السيرة مجالا لترويج إيديولوجيته وقليل منهم من ألف في هذا الموضوع دون أن يظهر نزعاته وميولاته الذاتية.

وقبل أن نعرض لاتجاهات المستشرقين في كتابة السيرة يجب التذكير

---

(٨٧) نفسه ص ٢٧

(٨٨) خليل عبد الكريم، شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، الجزء الاول: محمد والصحابة ص ٧١

(٨٩) المرجع السابق ج ١ ص٢١٠، والمؤلف إنما يتوسل بالبنيوية للطعن في السيرة رغم تناقض هذه الفلسفة مع معتقداته الماركسية التي ظل وفيا لها منذ فشله في الأزهر والتحاقه بكلية الحقوق – قبل نصف قرن – حتى وفاته عام ٢٠٠٢ م عن ٧٣ سنة.

بأن علم السيرة مثل باقي العلوم الإسلامية له أصول علمية ومنهجية يقوم عليها؛ ومما تقتضيه هذه الأصول:

١ – الرجوع إلى مصادر العلم؛ لمعرفة الأخبار.

٢ – الانضباط للقواعد الشرعية في ما يتعلق بفهم هذه الأخبار وتفسيرها.

٣ – تمثل الآداب المطلوبة من الباحث في الدراسات الإسلامية.

ولو رجع الدارس إلى مصادر السيرة لجمع الأخبار لكنه لم ينضبط للقواعد الشرعية في فهمها كانت كتابته عن السيرة منحرفة، ولو تحقق من الأصل الأول والثاني لكنه لم يستجمع آداب العلم الشرعي كان عمله أيضا منحرفا عن الصواب.

ومثالا لذلك أن من آداب العلم الشرعي (صحة الاعتقاد)... فمتى اختل هذا الشرط أو كان ضعيف التحقيق فيمن يكتب عن السيرة انعكس ذلك في موضوع تأليفه عن حياة المصطفى صلى الله عليه وسلم، لاسيما وأن أحداث السيرة تضمنت جانبا من الأخبار التي يدخل فيها الغيب، مثل حادثة شق الصدر، والإسراء والمعراج، ونصرة الملائكة للمسلمين في غزوة بدر، وغير ذلك...

والمستشرقون الذين كتبوا في السيرة النبوية مهما كان إخلاصهم لمعطيات العلم التاريخي في الغرب يظل فكرهم أسيرا للمسلمات المادية والرؤية الوضعية، وهذه التصورات وإن كانت لا تتناقض مع البحث التاريخي إلا أن مجالها هو تاريخ البشر الخاضع للتحليل العقلي المجرد، ولا يخضع لها تاريخ الرسالات السماوية، حيث تلتقي معطيات عالمي الغيب والشهادة...

وللسبب السابق وجدنا المستشرقين غير المتعصبين – من أمثال كلود كاهن في فرنسا ومونتجومري وات في إنجلترا –حين كتبوا عن السيرة النبوية اعتبروا أخبارها أحداثا تاريخية صرف، سواء أتعلقت بالغيب أم بالشهادة، وأخضعوها لنظر العقل، حيث لا يجدي شيئا، وجاؤوا بضلالات وانحرافات لا يسلم منها من أخل بشيء مما تقتضيه أصول العلم... ونحن إذا رجعنا اليوم إلى مختلف ما كتبه المستشرقون عن السيرة نجد اتجاهاتهم قد توزعتها ثلاث نزعات: ذاتية وتاريخية، وماركسية.

المطلب الأول

النزعات الذاتية في كتابة السيرة

أغلب الكتابات الاستشراقية في موضوع السيرة لم يدخر مؤلفوها جهدا في النيل من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفي ادعاء الكثير من الأراجيف والافتراءات عليه وفي تعمد إيجاد صلات مفتعلة بين دعوته وبين اليهودية والنصرانية، وتطرف عدد من المستشرقين فوصفوه بكل وقاحة ونسبوا إليه كل بدعة ورسموه في صور كاريكاتورية قبيحة ضمنوها كتبهم، وحاشاه عليه الصلاة والسلام عن كل ذلك...

وقد غلبت هذه النزعة الذاتية على كثير مما كتبه المستشرقون عن حياة محمد صلى الله عليه وسلم أو نشروه عن سيرته، سواء أكان ذلك دراسة أم كتابا، أو "مادة" في دائرة المعارف.

فبالنسبة للدراسات فأغلبها مقدم للندوات، أو منشور ضمن المجلات الاستشراقية، ويمكن للقارىء أن يقف على طائفة مهمة منها في أعمال ندوة عن " حياة النبي محمد " أشرف عليها " مركز الدراسات العليا المتخصصة في تاريخ الأديان " بستراسبورغ ١٩٨٠م (بمناسبة دخول القرن الخامس عشر الهجري)...

ومما تضمنته هذه الندوة " مقالة " لشارل بيلا[٩٠] اختار أن يكتب فيها عن موضوع " حول نساء عادين الرسول "...[٩١].

---

(٩٠) شارل بيلا مستشرق فرنسي توفي ١٩٨٦م عمل بمنطقة كرسيف بالمغرب إبان فترة الاستعمار قبل أن يستقر في باريس لإعداد أطروحته في الأدب عن موضوع " الوسط البصري وتكوين الجاحظ" نشرت عام ١٩٥٣؛ وقد تخصص بيلا في تراث الجاحظ فترجم عددا من رسائله ونشرها كما أشرف على العديد من الطلبة العرب الذين درسوا في السوربون قبل أن يحال على التقاعد أواسط عقد السبعينات...

(٩١) Charles Pellat, sur quelques femmes hostiles au prophète, in collogue de " la vie du prophète Mahomet ", ed: P.U.F PP 77-78

ففي هذه المقالة التي قدمها الكاتب في أكتوبر ١٩٨٠ – بمناسبة بدء القرن الهجري الجديد – حرص فيها على تتبع مختلف كتب السيرة والتاريخ؛ لجمع أخبار طائفة من إماء المشركين ممن احترفن التغني بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأذيته، مثل فرتنى وصاحبتها أمتا عبد الله بن خطل التميمي(٩٢)، وكان شارل بيلا قد صادف أخبار هؤلاء النساء خلال اشتغاله بالبحث في " الأدب الغنائي وأثره في المجتمع الإسلامي " خلال القرن الثالث الهجري الذي كان هذا المستشرق مهتما به بعد تحضير أطروحته في أدب الجاحظ.

وإذا تركنا المقالات إلى المؤلفات والكتب فلن يخفى على الدارس أسلوب التشكيك الذي لجأ إليه المستشرقون حينما يتكلمون عن مصادر السيرة في كتبهم(٩٣)، كما لن يخفى عليه الأسلوب المغرض الذي لجأ إليه رهبان المستشرقين، أمثال: هنري لامنس في القرن التاسع عشر، ولويس غاردي في القرن العشرين(٩٤).

وحتى إذا تجاوزنا هؤلاء الرهبان إلى أولئك الذين يصطلحون على أنفسهم "بالمستعربين " من أمثال فيارد R. Veillard و لوجافلو Le Gevellou وبلاشير... فإن التأليف في السيرة ظل وفيا لتلك المعتقدات التي ترى في سيرة رسول الإسلام مجموعة من الأخبار المنتحلة عن سير الرهبان والقديسين...

ففي كتاب " معضلة محمد " لبلاشير – مثلا – وهو من أشهر كتب السيرة عند المستعربين – لا يتوانى الكاتب عن ربط تحنثه صلى الله علية

---

(٩٢) أنظر: ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ج ٤ ص ٢٩...

(٩٣) أنظر على سبيل المثال:
Jean Sauvaget, Introduction. l'histoire de l'orient musulman, pp 120.

(٩٤) هنري لامنس راهب بلجيكي استقر آخر القرن التاسع عشر في بيروت وكان يدرس في كلية " القديس يوسف " مادة تاريخ الأدب التي كان يعرض ضمنها مقالاته الحاقدة عن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وأشهر منشوراته: "Les filles de Mahomet" المنشور ١٩١٢م؛ أما لويس غاردي فهو مستشرق فرنسي معاصر عمل في معهد الفلسفة واللاهوت بجامعة تولوز بفرنسا كتب عن السيرة في: "L'Islam: hier, Demain"؛ وقد سار على خطوات هذين المستشرقين الراهب الدومينكاني ج. تيري...

وسلم في غار حراء بما كان يفعله الرهبان[٩٥]، بل رجع إلى تراث النصارى ونقل نصوصه من أجل الاستدلال على أن أحداث السيرة تتطابق مع سير " القديسين "؛ فحادثة شق الصدر تماثل ما وقع للراهب تيموتيه الناسك[٩٦]، واختفاؤه صلى الله عليه وسلم في غار ثور عام الهجرة يقابل صنيع " القديس " فيلكس حين تربص به أعداؤه[٩٧]، والقسيس هابل كان يترك أغنامه ويدخل إلى غار يتأمل فيه تفاهة أمور البشر مثل ما كان يفعل محمد[٩٨]... بل وجد من المستشرقين وتلامذتهم من بلغت بهم نزعتهم الذاتية إلى اعتبار السيرة النبوية كلها انتحالا لسير أنبياء بني إسرائيل السابقين[٩٩].

ولا يكاد ما كتبه المستشرقون في " دائرة المعارف الإسلامية " يختلف عما سبق بيانه، ففي مادة (سيرة) التي حررها ليفي دلافيدا للطبعة الأولى من هذه الدائرة نجده يقول: "... إن هذه السيرة يرجع أصلها إلى التحول الذي طرأ على شخصية محمد في ضمير المسلمين الديني، وإلى الأثر الحاسم الذي أحدثته عناصر مختلفة بعينها في هذا التحول، وإلى شيء آخر فوق هذا كله، وهو أن احتكاك المسلمين باليهودية والمسيحية ورغبتهم في أن يضعوا منشئ الإسلام في كفة منشيء هذين الدينين قد شجعاهم على وضع تلك القصص التي أحاطوا بها شخص النبي، والتي أحدثت هذا التحول الشامل في طبيعة شخصيته..."[١٠٠].

---

(٩٥) R. Blachère, la problème de Mahomet PP 36

(٩٦) Ibid.. p 11

(٩٧) Ibid.. p 88

(٩٨) Ibid.. p 36

وانظر للتوسع في هذا الجانب: د. مصطفى المسلوتي، دراسات المستشرقين الفرنسيين للسيرة النبوية، أطروحة دكتوراه بدار الحديث الرباط.

(٩٩) أنظر على سبيل المثال:

T. FAHD, Problème de typologie dans la (sira) d'Ibn Ishâq, in " la vie du prophète Mahomet ", pp 67-76.

(١٠٠) دائرة المعارف الإسلامية ج ١٢ ص ٤٤٦

وإذا انتقلنا إلى " دائرة المعارف الإسلامية " في إصدارها الجديد[١٠١] نجد محرر مادة " محمد " المستشرق بوهل Frants Buhl يكرر نفس الدعاوى، فعند كلامه عن " تأسيس مجتمع المدينة " عزا كل التشريعات التي جاء بها الإسلام إلى دين اليهودية، وذكر تحديدا صيام عاشوراء، والصلاة الوسطى – التي هي عنده صلاة الظهر – وأحكام الوضوء، وصلاة الجمعة والتوجه إلى القبلة...[١٠٢]، ولم يكتف بذلك بل حرص على تقديم السيرة النبوية على أنها نسخة مشوهة عن سيرة موسى!!!

المطلب الثاني
النزعات التاريخية في كتابة السيرة

إذا كان موضوع علم السيرة هو حياة الرسول صلى الله عليه وسلم من مولده إلى وفاته مع ما تعلق بذلك من أخبار... وإذا كان قسم من هذه الحياة قد عاشه صاحبه نبياً يوحى إليه من الله، فإنه من المستحيل – علمياً – أن نعتبر السيرة بجميع مراحلها تاريخاً يجب أن يخضع لمناهجنا النسبية في النقد والتحليل؛ لأن هذه المناهج – وإن اتسمت بالحياد والنزاهة – لا يمكنها أن تستوعب ظاهرة الوحي والنبوة وما ارتبط بهما من خوارق ومعجزات... ولهذا السبب حتى حين وجدنا في القرن العشرين بعض المستشرقين ممن اختاروا لأنفسهم الحياد تجاه رواسب الماضي لكنهم نظروا إلى أحداث السيرة على أنها وقائع تاريخية مجردة وقفوا أمام طائفة من الأخبار لم يستطع منهجهم استيعابها، فعمدوا إلى إسقاطها أو الطعن فيها بالزيف... , و أكثر هذه الأخبار تتصل بمشاهد وأخبار الغيب...

ومن المستشرقين الذين جسدوا هذه النزعة: كلود كاهن، ومونتجومري وات.

---

(١٠١) صدرت طبعتها الأولى ما بين ١٩١٣– ١٩٤٢ وابتدئ في الطبعة الثانيةعام١٩٥٤..

(١٠٢) Encyclopédie de l'Islam, tome 7, pp 370

فكلود كاهن[١٠٣] حين كتب عن (محمد) ضمن " تاريخ العرب والشعوب الإسلامية " لم يخف تبرمه وانتقاده للكتابات الاستشراقية عن السيرة، حيث قال: "... ولا يليق بالمؤرخ المنصف أن يعير اهتمامه للاتهامات التي صدرت عن المهاترات الطائفية القديمة، ولا أن يقنع بتلك الشروح والتعليلات الصبيانية التي ترى في الرسالة الدينية نتيجة من نتائج مرض الصرع، وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئاً من الارتباك، تبعا لعقليتنا المعاصرة، فقد أكدت المهاترات على شهوات الرسول الدنيوية وألمحت إلى زوجاته التسع، لكن الثابت أن معظم هذه الصلات الزوجية قد طبعت بطابع سياسي، وأنها استهدفت الحصول على ولاء بعض الإشراف أو بعض الأفخاذ..."[١٠٤].

لكن بالرغم من هذا الموقف تجاه التراث الاستشراقي في موضوع السيرة إلا أن كلود كاهن أخلد إلى نزعته التاريخية المجردة التي أوقعته في الكثير من الأراجيف، منها: موقفه من مصادر السيرة نفسها حيث قال:"... لابد لنا من الاعتراف بأن ما نعرفه من شخصية محمد يمتزج امتزاجا كبيرا بكثير من الأخبار التي لا تمت إلى التاريخ إلا بصلة واهية "[١٠٥]، ومن تلك الأراجيف: ما ذكره عن الهجرة وأنها كانت استجابة لطلب قدمه عرب ويهود يثرب قال "... فلقي أوائل المسلمين عنتاً كبيراً، وهاجرت فئة منهم إلى الحبشة، ثم قرر محمد نفسه عام ٦٢٢ أن يستجيب – فيما يبدو – لدعوة تلقاها من قبائل عربية ويهودية في يثرب كانت تبحث عن رجل يذيع السلام في ربوع الجزيرة..."[١٠٦]، أما القرآن فقد قال عنه كاهن:"... ويرى المؤرخون – من غير المسلمين – أن أوجه الوفاق بين القرآن والتوراة – بغض النظر عن أوجه الخلاف بينها – مردها إلى تلك المحاورات التي كان محمد وصحابته يحاورون بها العامة من يهود يثرب، ورغب محمد في أن يناصره يهود المدينة، ولما تبدد هذا الأمل أخذهم بمزيج من

---

(١٠٣) كلود كاهن مستشرق فرنسي معاصر من أصول يهودية يكتب في تاريخ الإسلام، وكان أستاذا بجامعة باريس الأولى (السوربون القديمة) توفي عام ١٩٨٦م،

(١٠٤) كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ص ١٤

(١٠٥) نفس المرجع ص ١٢

(١٠٦) نفسه

المصانعة والعنف عن طريق القتال والتهجير، حتى تم له قيام جماعة منسجمة داخل المدينة "[١٠٧]، وتبعا لهذا المنهج التاريخي المجرد الذي لا يعتبر إلا بالأسباب المادية وجدنا كاهن يعتبر المغازي النبوية "... استمراراً للغزوات القديمة التي اعتادت القبائل أن تشنها على بعضها"[١٠٨]...

وقبل كلود كاهن اشتهر المستشرق البريطاني " مونتجومري وات "[١٠٩] بموقفه الانتقادي من تراث المستشرقين في موضوع السيرة التي ألف فيها وات ثلاثة كتب:

- محمد في مكة ١٩٥٣م.
- محمد في المدينة ١٩٥٦م.
- محمد نبيا ورجل دولة ١٩٦١م.

وفي مادة " محمد " التي نشرتها للكاتب " دائرة المعارف الإسلامية العامة " – وتكاد تكون تلخيصا لكتابة " محمد نبياً ورجل دولة " – نجد المستشرق " وات " يذكر – في مقدمة المادة – بالصعوبات التي تعترض القارىء الغربي لسيرة محمد صلى الله عليه وسلم:

فيذكر أن المعضلة الأولى تكمن في تصور طبيعة الدين – بعامة – في الغرب حيث أن مجاله لا يتعدى دائرة الحياة الخاصة والشخصية، فلما يقف القارىء الغربي على أن دين الإسلام يشرع لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة فإن تصوره المسبق لطبيعة الدين يغذي ميله إلى الاعتقاد بكون محمد صلى الله عليه وسلم ليس أكثر من زعيم وقائد دولة عاش خلال القرون الوسطى[١١٠].

---

(١٠٧) نفسه ص ١٣

(١٠٨)

(١٠٩) مونتجومري وات مستشرق انجليزي اهتم بتاريخ الجزيرة العربية والسيرة النبوية على الخصوص، وقد عمل في قسم الدراسات الشرقية بجامعة أدنبرة باسكوتلندة، وتحظى أعماله بشهرة واسعة بين المشتغلين بالدراسات الإسلامية في أوربا وفي العالم الإسلامي أيضا.

(١١٠) M. Watt, Muhammad, in Encyclopédie générale de l'Islam, pp: 49

المعضلة الثانية التي تعترض القاريء الغربي هي " أن عدداً من الغربيين لا يريدون التحرر من المعتقدات الموروثة عن حقبة الحروب الصليبية وما رافقها...، حيث يمثل المسلمون ومحمد – على الخصوص – كل ما هو قبيح أو سيء، وتداعيات هذه المعتقدات الموروثة لازال لها تأثير، ولم تختف بعد من أذهان الغربيين بخصوص الإسلام، حتى إننا اليوم يمكن أن نجد بسهولة من يتكلم بإيجابية عن البوذية، عكس ما يقع بالنسبة للإسلام "(١١١).

وكان "مونتجومري وات " قد عرض في مقدمة كتابه الأول " محمد في مكة " إلى أخطاء الغربيين من أسلافه الذين كتبوا في السيرة انطلاقا من تصوراتهم الذاتية، ونبه في سياق مقدمته تلك إلى أنه سيتخذ موقفا محايداً مما أثير في تلك الكتابات(١١٢). لكن بالرغم من ذلك الموقف العلمي الفريد الذي اتخذه " وات " من تراث المستشرقين المتصل بالسيرة ورغم محاولته الوقوف على الأسباب الموضوعية التي تحكمت في تشكيل تصورات الغربيين لرسول الإسلام... إلا أن النزعة التاريخية المجردة لهذا المستشرق أوقعته في عدد من الافتراضات التي انساق معها من غير دليل، فأخل بما يقتضيه المنهج العلمي لكتابة السيرة النبوية.

ومن نماذج هذه الافتراضات التي وقعت في مادة (محمد) " بدائرة المعارف الإسلامية العامة ":

١ – ما ذكره من "... أن محمداً – باعتباره ولد يتيما – فإن العرف عند قومه منعه من أن يحصل على شيء من ميراث آبائه، كما نما عنده الوعي

---

(١١١) Ibid.. pp 49

(١١٢) قال في ذلك:" لقد ألزمت نفسي برغم إخلاصي لمعطيات العلم التاريخي المكرس في الغرب أن لا أقول أي شيء يمكن أن يتعارض مع معتقدات الإسلام الأساسية، ولا حاجة بنا إلى القول بوجود هوة فاصلة بين العلم الغربي والعقيدة الإسلامية، وإذا حدث أن كانت بعض آراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية..." وات، محمد في مكة ص ٦ تعريب: شعبان بركات...

بالوضعية الاجتماعية التي يكون فيها أولئك الذين لم يجدوا لهم مكانا في دائرة كبار تجار مكة، وقد عاش محمد عدة صعوبات في حياته قبل أن يصبح عند بلوغ خمس وعشرين سنة مشرفاً على تجارة امرأة غنية تزوجها... وهذا الزواج هو الذي نقله إلى وضعية اجتماعية مريحة، لكن ذكريات السنوات الصعبة لم يستطع نسيانها بالتأكيد "(١١٣).

٢ – لما تكلم عن المغازي النبوية قال: "إن الغزو كان واحدة من الانشغالات العادية للعرب الرحل، وإنه كان نوعا من أنواع الرياضة، وإن هدفه كان الاستيلاء على قطعان الغنم والإبل... وإن محمداً بعد استقراره في المدينة بدأ يبعث السرايا لاعتراض قوافل مكة في طريقها من الشام وإليه..."(١١٤).

٣ – في كلام " وات" عن الهجرة إلى المدينة ذكر " بأن محمداً أظهر انشغاله بقبول يهود يثرب لدعوته، وأنه جاء للعرب بنفس الرسالة التي جاء بها موسى وعيسى قبله، لكن اليهود كانوا لا يعترفون بنبي إلا من ملتهم؛ لذلك لجأوا إلى التشكيك في نبوته، ثم وقع في الخامس عشر من صفر للسنة الثانية للهجرة الحدث الذي سيصبح رمزا للقطيعة النهائية بين المسلمين واليهود، وهو تغيير القبلة بعد أن كان محمد يتجه إلى القدس؛ طمعا في قبول اليهود لدعوته "(١١٥).

والافتراضات التي انساق معها "وات" في كتابته عن السيرة لا يتسع المجال لعرضها جميعا، غير أن الأمثلة السابقة تبين طبيعة التآليف الاستشراقية ذات النزعة التاريخية...، فرغم تسلح المستشرق المؤرخ بالمنهج ورغم تجرده من رواسب التراث الاستشراقي، إلا أن استيعاب مادة السيرة تعوقه افتراضات يطرحها تفكير عقل لا يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه

---

(١١٣) Watt, Muhammad, in Encyclopédie générale... pp 55-56

(١١٤) Ibid pp 62

(١١٥) Ibid pp 65

وسلم، ثم لا تلبث هذه الافتراضات أن تتحول إلى أخطاء أو سوء فهم أحداث معينة يخضعها المستشرق لتعليل عقلي مجاف لسياق وقوعها ولطبيعتها.

المطلب الثالث

النزعة الماركسية في كتابة السيرة عند المستشرقين

سبقت الإشارة إلى هذه النزعة عند الكلام عن الاتجاهات التغريبية في كتابة السيرة، حيث دأب مستشرقو أوربا المنتمون للإيديولوجية الشيوعية على تصدير هذه النحلة إلى العالم الإسلامي عن طريق الطلبة الذين أطروهم في مرحلة الدراسات العليا.

وإذا تلافينا هذه الظاهرة في جامعات أوربا الشرقية سابقا – بخاصة في موسكو وبرلين الشرقية – فإننا نجد لهذه النزعة رواجاً في أوربا الغربية الرأسمالية كذلك...، ولعل الفرنسي مكسيم رودنسون(١١٦) أشهر مستشرق ماركسي بالغرب كتب عن السيرة النبوية وأخضعها للتفسير المادي التاريخي.

نشر رودنسون ثلاث دراسات متعلقة بالسيرة:

"حياة النبي والمشكلة الاجتماعية لأصول الإسلام" عام ١٩٥٧م.

"محمد" ١٩٦١م.

مادة "محمد" في دائرة المعارف الكونية المجلد الخامس عشر(١١٧).

---

(١١٦) ويمكن الرجوع بخصوص موضوع هذا المستشرق إلى ما كتبه د. عماد الدين خليل عن "... المستشرقون والسيرة النبوية..." ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية ج ١ ص ١١٣– ٢٠١ حيث خص كتابه "محمد في مكة" بدراسة وافية.

(١١٧) مكسيم رودنسون مستشرق شيوعي فرنسي من أصول يهودية ولد عام ١٩١٥م، عمل في العديد من المؤسسات الجامعية الفرنسية وتخصص في دراسة تاريخ وتقاليد يهود الفلاشا بأثيوبيا، وقد أشرف على العديد من الباحثين العرب ولازال أستاذا بمعهد فرنسا في باريس، وانظر ترجمته وتآليفه عند: العقيقي، المستشرقون ج ١ ص ٣٦٠.

ولأن المادة الأخيرة هي الأكثر رواجا بين القراء الغربيين وغيرهم – بحكم أهمية دائرة المعارف الكونية وكثرة تداولها في أقراص الحاسوب – فسيقصر الكلام عليها.

بدأ رودنسون كلامه عن موضوع السيرة بإثارة الشك في المصادر المعتمدة فيها...، فالكتب التي دونتها لم تجمع إلا بعد قرنين من وفاة محمد صلى الله عليه وسلم(١١٨)، وسلاسل الإسناد التي نقلت لنا الأخبار لا دليل على صدقها وصحتها، والقرآن نفسه الذي اعتبر مصدراً للسيرة رتبت نصوصه " عشوائيا " وتصعب الاستفادة منه؛ لأنه لم يرتب تبعا لتاريخ النزول !!(١١٩) ولعل دافع رودنسون للطعن في مصادر السيرة هو حرصه على التخلص منها، حتى يمكنه أن يضفي على المادة التي حررها تصوره الخاص النابع من انتمائه الماركسي وأصوله اليهودية...

بعد المصادر انتقل رودنسون إلى أحداث ما قبل البعثة، وحرص على إقناع القارىء بعدد من الأوهام والافتراضات، منها: أن زيد بن ثابت – رضي الله عنه – ينتمي إلى قبيلة عربية "ذات أغلبية مسيحية"، ومن افتراضاته أيضا أن محمدا – صلى الله عليه وسلم – "لم تعجبه وضعية الوسط الذي يعيش فيه، وكان ينظر بعين ناقدة إلى التصورات المذهبية التي كان عليها مجتمعه، وأن التطور الذي طرأ على الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد العرب – وفي مكة خاصة – خلق العديد من المناقشات الحادة..."(١٢٠).

وبعد هذا الافتراض انتقل رودنسون إلى غرضه وهو إخضاع الأحداث

---

(١١٨) سبق لي أن عرضت لموضوع المنشورين الأول والثاني لرودنسون في دراسة عن (مطاعن المستشرقين في ربانية القرآن) ضمن مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية – الكويت، العدد ٣٨ص ٩٧ وما بعدها.

(١١٩) وهو في دعواه تلك يختلف حتى في مستشرق يهودي آخر هو: يوسف هوروفيتس مؤلف " المغازي الأولى ومؤلفوها "، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة عام ١٣٦٩هـ ترجمة د. حسين نصار.

(١٢٠) Maxime Rodinson , Muhammad, in Encyclopédia universalis corpus 15 pp 887

للتفسير المادي... فقال: "... إن التطور السابق زاد من أهمية ودور المال وحطم التوازن الاجتماعي والقيم القبلية والجماعية المرتبطة به، وهذا ما جعل دين العرب القائم تقليديا على الشرك محط السؤال؛ لأنه أضحى غير قادر على مواكبة الآمال الجديدة؛ خصوصا مع التصور المادي العنيف للكون عند تجار مكة. إن هذا الوضع هو الذي أثار تعاطف الناس مع دعوات التوحيد، ومع الممارسات والأفكار التي نشرها في بلاد العرب اليهود والنصارى، وحتى المزدكيون "... !!"[١٢١].

ثم يضيف رودنسون:" وكان محمد يتلقى مباديء الدين في مكة بسؤال النصارى الذين كانوا قلة من الفقراء ضعيفي المعرفة، كما كان يسأل اليهود الذين كانوا أكثر عدداً، وكانت لهم في المنطقة مراكز جمعت بين الثراء والقوة وحسن التنظيم مع التوفر على عدد من الأحبار، وكان محمد يتلقى عنهم تعاليم التوراة..."[١٢٢]، ولا يدري القاريء أين وجد هؤلاء الأحبار والرهبان في مكة زمن المبعث؟؟

ولن يفيد القاريء الوقوف على كل الأراجيف التي ادعاها رودنسون بشأن العوامل الاقتصادية التي كانت حافزا لظهور دعوة الإسلام عن طريق التلفيق من تعاليم الأديان الأخرى بخاصة دين اليهود، فكلامه بخصوص هذا الجانب شبيه بما سبق التعرض له عند الكلام عن التغريبيين...، بل لا يكاد يختلف طيب تيزيني وعبد الرحمان الشرقاوي عن رودنسون إلا في جانب واحد، هو تعصب هذا الماركسي الفرنسي لملته، حتى جعل الإسلام كله نسخة مشوهة عن اليهودية، وادعى – إضافة لذلك – أن محمدا صلى الله عليه وسلم بعد أن أخذ تعاليم اليهود عمد عقب غزوة بدر ثم أحد إلى استئصال وجود هؤلاء بالمدينة[١٢٣].

والقاريء إذ يقف على الاتجاهات المنحرفة في كتابة السيرة لابد أن

---

(١٢١) Ibid pp 887-888

(١٢٢) Ibid pp 888

(١٢٣) Ibid pp 889

يتساءل عن سبب انتشارها وكثرة التآليف فيها خلال عصرنا الراهن، رغم أن الكثير من المنشورات المتعلقة بهذه الاتجاهات تظل فوق رفوف العرض حتى يتغير لون ورقها، لتباع بعدئذ في عروض التخفيض، وحتى في هذه الحالة فإن استهلاك هذه المنشورات يظل محصوراً في طوائف أربعة من القراء:

- الأولى: محدودي الثقافة الإسلامية، ممن لاتمييز عندهم بين الأصيل والدخيل، ولا بين كتابات العلماء ومنشورات مروجي الفكر الخلاسي.
- الثانية: المتعصبة للمذهب من الروافض، ومن في حكمهم.
- الثالثة: بقايا الباطنية في أطراف العالم الإسلامي من منتحلي البهائية والقاديانية...
- الرابعة: الجهلة من مقلدي المستشرقين الذين يرون في الأخذ عن أساتذتهم نوعا من الاستعلاء.

ونادراً ما نجد غير هؤلاء يبتاع هذه المنشورات إلا باحثا في الدراسات الإسلامية لم يتيسر له الاطلاع عليها عن طريق الاستعارة.

كما أنني لم أشأ أن ألتفت في كلامي عن " الاتجاهات المنحرفة..." إلى بعض الإنشائيات التي جمعت بين الوقاحة والجهل والكفر مثل منشور " أشعار شيطانية " الذي صدر في إنجلترا في أكتوبر من عام ١٩٨٨م؛ لأن مثل هذه المنشورات يجدها الدارس خارج أي تصنيف يعتمده للاتجاهات المنحرفة.

ولا يتسع المجال لبسط المعيار العلمي لتمييز الاتجاهات المنحرفة في كتابة السيرة؛ لإن هذا يحتاج لدراسة خاصة، وحسبي أني ذكرت في أول هذا الفصل الأسباب الرئيسة التي يرجع إليها هذا الانحراف، ويمكن الاطلاع عليها في مظانها، مثل كتابات الشاطبي، وابن القيم، ومن تأثر بهما من الباحثين المعاصرين.

خاتمة

كانت هذه الدراسة عرضاً وتحليلاً وتصنيفاً لشتى الاتجاهات التي ظهرت في كتابة السيرة النبوية خلال عصرنا الراهن...، وهي لم تعرض لكل التآليف التي نشرت، لأن ذلك في حكم المستحيل اعتباراً لكثرتها... لكن جميع ما كتب في الموضوع لا يكاد يخرج عن الاتجاهات المذكورة.

وأشير في هذه الخاتمة إلى أنني من خلال تتبع هذه التآليف خلال سنوات رأيتها – بعد الإطلاع عليها – لا تكاد تشذ عن الاتجاهات التي حددتها في ثمانية عشر لونا...

أما النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسة فهي:

١ – أن التأليف في السيرة – خلال العصر الراهن منه: ما هو محمود، ومنه: ما هو مذموم منحرف؛ وهذا القسم الثاني يرجع إلى أسباب عدة كانت دافعاً لظهوره.

٢ – أن التأليف في السيرة النبوية ظل خلال قرون وفياً لغرض أساس هو خدمة هذا العلم، إلا أنه خلال القرن الرابع عشر للهجرة ظهرت نزعات منحرفة حاولت استغلال التأليف في السيرة؛ لأجل الترويج لشتى النحل والأراجيف...

٣ – أن الدراسة العلمية للسيرة اليوم تقوم على تجريد صحيح الآثار والأخبار أولا، ثم على حسن فهمها واستيعابها والوقوف على فقهها ودلالتها بعد صياغتها بأسلوب علمي رصين.

٤ – أن كثرة التآليف المتعلقة بالسيرة النبوية اليوم تبرز أهمية التمييز بين الكتابات السديدة المتأصلة وبين مختلف الإنشائيات التي تسورت على هذا الموضوع، يدفعها الحقد على نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، أو الجهل بمقام النبوة، أو الرغبة في الشهرة والنجومية !!!

وختاما: نسأل الباري تعالى أن ييسر لنا من أمرنا رشداً، وأن يجعلنا ممن يلزمون سنة الدين في المعتقد، مصدقين بما يقتضيه الإيمان بالنبوة والرسالة، والله تعالى أعلم وأحكم.

فهرس المراجع

١ – أساس البلاغة، محمود الزمخشري، الطبعة الثالثة ١٩٨٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة.

٢ – الأنساب، السمعاني، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣ – البداية والنهاية، ابن كثير، دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ.

٤ – تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، كلود كاهن، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ دار الحقيقة بيروت، تعريب بدر الدين قاسم.

٥ – التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، الطبعة الثانية ١٩٧٨م، دار العلم للملايين بيروت.

٦ – التفسير الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، الطبعة السابعة ١٤١٢هـ مكتبة المنار الأردن.

٧ – حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوي، الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ، دار الفكر بيروت.

٨ – خاتم النبيئين، محمد أبو زهرة، دار التراث بيروت.

٩ – دراسات المستشرقين للسيرة النبوية، مصطفى المسلوتي، أطروحة دكتوراه مقدمة لدار الحديث، الرباط ١٤١٨هـ.

١٠– دراسة في السيرة، عماد خليل، الطبعة التاسعة ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة بيروت.

١١– الرسول صلى الله عليه وسلم، سعيد حوى، الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ دار الكتب العلمية بيروت.

١٢– المرسل الرسول الرسالة، محمد باقر الصدر، دار التعارف بيروت ١٩٨١م.

١٣– رودنسون ونبي الإسلام، حسن قبيسي، الطبعة الأولى ١٩٨١م، دار الطليعة بيروت.

١٤- سيرة المصطفى نظرة جديدة، هاشم الحسيني، دار القلم بيروت ١٩٨١.
١٥- السيرة النبوية دروس وعبر، مصطفى السباعي، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة ١٩٨٨.
١٦- السيرة النبوية الشريفة، محمد بيومي مهران، دار النهضة العربية بيروت ١٩٩٠م.
١٧- السيرة النبوية الصحيحة: محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة، أكرم ضياء العمري، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
١٨- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية: دراسة تحليلية، مهدي رزق الله أحمد، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، نشر مركز الملك فيصل للبحوث... الرياض.
١٩- سيرة النبي صلى الله عليه وسلم (تهذيب سيرة ابن إسحاق) عبد الملك بن هشام، دار الفكر بيروت بإشراف محمد محيي الدين عبد الحميد.
٢٠- شدو الربابة بأحوال مجتمع الصحابة، خليل عبد الكريم، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، سيناء للنشر القاهرة.
٢١- عبقرية محمد، عباس محمود العقاد، كتاب الهلال، العدد الأول ١٣٧٠هـ، القاهرة.
٢٢- على هامش السيرة، طه حسين، دار المعارف القاهرة.
٢٣- فقه السيرة، محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الثامنة ١٤٠٠ هـ، دار الفكر بيروت.
٢٤- فقه السيرة، محمد الغزالي، الطبعة السابعة ١٩٧٦م دار الكتب الحديثة القاهرة.
٢٥- الفكر الإسلامي المعاصر دراسة وتقويم، غازي التوبة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م دار القلم بيروت.
٢٦- محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهج رسالة.. بحث وتحقيق، محمد الصادق عرجون، دار القلم دمشق.
٢٧- مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط، طيب تيزيني، دار دمشق ١٩٧١م.

٢٨- مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فاروق حمادة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، دار الثقافة الدار البيضاء.

٢٩- مع المصطفى في عصر المبعث، عائشة عبد الرحمان، الطبعة الثانية ١٩٧١م دار المعارف القاهرة.

٣٠- المغازي الأولى ومؤلفوها، يوسف هوروفيتس، الطبعة الأولى ١٣٦٩هـ، البابي الحلبي القاهرة، ترجمة حسين نصار.

٣١- مقدمات أولية في الإسلام المحمدي الباكر، طيب تيزيني، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار دمشق.

٣٢- موقف العقل والعلم والدين من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ، أحياء التراث العربي بيروت.

٣٣- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، محمد الخضري، دار الجيل بيروت.

٣٤- الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، الطبعة الثانية ١٣٥٢هـ، مطبعة المنار القاهرة.

المقالات والأبحاث

٣٥- الاتجاهات المعاصرة في دراسة السيرة، محمد الحسيني، فصيلة المنهاج بيروت، العدد ٦ عام ١٤١٨هـ.

٣٦- السيرة، ليفي دي لافيدا، دائرة المعارف الإسلامية، تعريب الشنتناوي وآخرين الجزء ١٢.

٣٧- عمارة الكعبة عبر التاريخ، مهدي رزق الله أحمد، فصيلة الدارة، الرياض العدد ١ السنة ٢٤.

٣٨- المستشرقون والسيرة النبوية... عماد الدين خليل، ضمن: مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٥م نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

المراجع الأجنبية

39- Introduction. l'histoire de l'orient musulman, Jean Sauvaget, librairie d'Amérique et d'orient, Paris 1961.

40- Mohamed, Philip Hitti, the encyclopedia Américana, V:19, Grolier incorporated.

41- Muhammad, Frants Buhl, in Encyclopédie de l'Islam, tome 7, , maisonneuve et larose: Paris 1993.

42- Muhammad, Maxime Rodinson, in Encyclopaédia universalis, corpus 15, edition: Paris 1990.

43- Muhammad, Montgomry watt, in Encyclopédie générale de l'Islam S.I.E.D.

44- Le problème de Mahomet, Régis Blachère, ed presses universitaire, paris.

45- Problème de typologie dans la sira d'Ibn Ishaq, Toufic Fahd, in la vie du prophète Mahomet, collogue de strasbourg, 10 ed 1983, P.U.F, Paris.

46- Sur quelques femmes hostiles au prophète, charles pellat, in collogue de strasbourg P.U.F, Paris 1983.